مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية المجلد 09 العدد 2 جويلية 2018م (ذو القعدة 1439هـ)
ص ص: 97- 140

❁ قراءة قرآنية في"سيكولوجية الأقليات وإشكالية الصراع في العالم"

Quranic reading in "The psychology of minorities and the problem of conflict in the world"

✍د.عبد الرحمن صالح بابكر*

جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2017/11/19 تاريخ النشر: 2018/07/15

ملخص:

تقوم هذه الدراسة على تحليل ثلاثة محاور، يتعلق المحور الأول بدراسة عالمية القرآن العظيم وفلسفة الأقليات في هذا الوجود، والثاني بأهمية الدراسات النفسية وعلاقاتها بتحليل الأحداث التاريخية وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ويتعلق المحور الثالث بتحليل فلسفة "الأنا" في القرآن العظيم ضمن التفكير الكلي والجزئي وإشكالية صراع الأقلية والأكثرية.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم؛ الأقليات؛ الدراسات النفسية؛ الأنا.

Abstract:

This study is based on the analysis of three axes, the first axis relates to the study of the universality of the Great Quran and the philosophy of minorities in this existence, and the second the importance of psychological studies and their relationship to the analysis of historical events and their relationship to social sciences, and the third axis related to the analysis of the philosophy of "I" in the Great Quran within the overall and partial thinking and the problem of conflict Minority and majority.

Keywords: The Holly Quran; Minorities; "I"; psychological studies.

* المؤلف المرسل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إذا دخل أحد منَّا أيّ مكتبة كبيرة، أو دارا من دور النشر، أو قصد معرضا دوليا للكتاب، وكان في جيبه ما يسعه لشراء ما يريد، فما هي اختياراته، وعلى ماذا تقع عينه يا ترى؟؟

إنه لا شيء يسترعي انتباهه مثل الكتب والعناوين ذات الصيت الواسع، تلك التي تناولها العلماء الكبار للنقد والتحقيق في المعالجة، إن شهرة الكاتب أو العالم الباحث، هي التي تفرض نفسها على الساحة العلمية على المستوى المحلي والدولي، وتستهوي انتباه جميع الطلبة، وكذا الأساتذة الباحثين، دون النظر أو التفكير في غلاء ثمن الكتاب، باعتبار طول باع الباحث وقدرته على تناوله للمواضيع الهامة والجادة، وكذا تقديم الحلول للمشكلات التي استعصت على البشرية، وهذا يقودنا إلى تناول كتاب الله عز وجل بالدراسة والتحليل، باعتباره أعظم كتاب في هذا الوجود، وهو ما جعلني أعالج موضوع الصراع الدائر في العالم، وما يتعلق به من مشكلة الأقليات، والذي هو موضوع الساعة، علما بأن مسألة الأقليات وما يتعلق بها من مشكلات، مسألة بالغة الخطورة والحساسية، ومثل هذه المسألة لا يمكن التصدي لها ومعالجتها إلا من خلال كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

هناك جملة من الملاحظات استوقفتني تدور كلها حول عظمة كتاب الله عز وجل الذي هو محور هذه الدراسة، وهو ما جعلني أقسم البحث إلى ثلاثة محاور، يتعلق المحور الأول بدراسة عالمية القرآن العظيم وفلسفة الأقليات في هذا الوجود، والثاني بأهمية الدراسات النفسية وعلاقاتها بتحليل الأحداث التاريخية والعلوم الاجتماعية، ويتعلق المحور الثالث بتحليل فلسفة "الأنا" في القرآن ضمن التفكير الكلي والجزئي وإشكالية صراع الأقلية والأكثرية. وعالمية القرءان هذه تنقسم إلى ثلاث نقاط، تتعلق الأولى بعرض أعظم قسم ورد في كتاب الله عز وجل في حق القرآن العظيم، وتتعلق الثانية باختزال الزمان في القرآن العظيم، والثالثة بشهادته على الناس.

عناصر البحث:

المحور الأول: عالمية القرآن العظيم وفلسفة الأقليات في هذا الوجود:

المطلب الأول: عالمية القرآن العظيم عرض وتحليل

المطلب الثاني: فلسفة الأقليات في هذا الوجود وفي القرآن العظيم عرض وتحليل:

المحور الثاني: أهمية الدراسات النفسية في تحليل الأحداث التاريخية والعلوم الاجتماعية في القرآن العظيم:

المطلب الأول: فلسفة الأنا وما يترتب عنها من صراع في العالم، وقراءة الموضوع قراءة تاريخية وفق المنهج القرآني:

المطلب الثاني: تحليل مقولة إبليس لله عز وجل: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وما يترتب عنها من نتائج.

المحور الثالث: تحليل فلسفة "الأنا" في القرآن ضمن التفكير الكلي والجزئي وإشكالية صراع الأقلية والأكثرية:

المطلب الأول: – تحليل فلسفة "الأنا" في القرآن ضمن التفكير الكلي والجزئي وإشكالية أصل الصراع في العالم:

المطلب الثاني: نظرية التوازن بين الأقلية والأكثرية في الحقل الدعوي، وما يترتب عنها من صراع، عرض وتحليل:

خلاصة البحث

فهرسة المصادر والمراجع.

المحور الأول: عالمية القرآن العظيم وفلسفة الأقليات في هذا الوجود:

المطلب الأول: عالمية القرآن العظيم:

يقول الدكتور طه جابر العلواني: "لقد كتب العلماء في فضل كتاب الله آلاف الكتب، بل ملايين[1]. فالإنسان المتدبر لآيات الله في كتابه العزيز يكتشف الكثير من الأسرار، ويزداد يقيناً بأن هذا كلام الله خالق هذا الكون، لو طرحنا سؤالا يتمثل فيما يلي: ما هو أعظم قسم جاء في كتاب الله عز وجل؟ لكان الجواب كالتالي:

1 . أعظم قسم ورد في كتاب الله عز وجل في حق القرءان العظيم:

هو ما جاء في خواتم سورة الواقعة، حيث أقسم المولى عز وجل بأيمان مغلظة، على عظمة كتابه فقال: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾، ثم يكون المقسم به هو هذا القرآن الكريم، فيقول المولى عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾. إن هذا القسم العظيم يحمل ثلاث دلالات، الدلالة الأولى: إن الذي أقسم هو الله جل جلاله، والدلالة الثانية: إن الشيء الذي أقسم به الله جل جلاله هو شيء عظيم، والدلالة الثالثة: إن المقسم به شيء أعظم وأعظم، وهو القرءان العظيم، أما بالنسبة إلى الشيء الذي أقسم به الخالق العظيم هو مواقع النجوم، وهو كل ما يتعلق بحركة الكواكب ومسارات النجوم، وكل ما يتضمن علم الفلك، من شموس وأقمار ومجرات داخل في الموضوع، فلو حاول أحدنا، أن يحيط بعض الشيء بعلم النجوم وحركة الكواكب، والمسافات الضوئية بين بعضها البعض، وعدد المجرات... لتوقف عقله عن الاستيعاب، والغريب في الأمر أن حركة النجوم دقيقة في مسارها إلى درجة لا يعلمها إلا خالقها جل جلاله، واقرأ قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾(يس:40). ماذا يستطيع أن يفهم الإنسان من ذلك المحيط الواسع الكبير، والمولى عز وجل نفسه يقول: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾(الذاريات:47)[2].

لما نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (الملك:5). معنى ذلك أن جميع هذه الكواكب تنتمي إلى السماء الدنيا . أي القريبة . فماذا عن السماء الثانية، والثالثة، والرابعة، إلى السابعة؟؟ لذلك يقول المولى عن ذلك النوع من القسم: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ ثم يكون الشيء المقسم به . كما رأينا . هو القرآن الكريم: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾. على الإنسان أن يقيم وجها من وجوه المقارنة البسيطة، بين هذا الكتاب العظيم، عبر أعظم قسم في كتابه، وبين هذا الكون الذي أقسم به المولى عز وجل، والذي نراه عظيما، وهو ليس بشيء أمام عظمة الله جل جلاله، وعظمة وكتابه الكريم، ذلك الكتاب الذي استفتح المولى عز وجل أول سورة بعد الفاتحة التي هي سورة البقرة بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، وهو الكتاب الذي وصفه المولى عز وجل بأوصاف جدّ عجيبة، منها قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ بعد هذا التشبيه العجيب، ساق المولى عز وجل مباشرة، جملة من أسمائه الحسنى[3] والسؤال ما هي العلاقة بين هذا القرءان الذي لو أنزله الله على أعظم جبل في العالم، لدكّه دكًا كما وقع لنبيه موسى، وبين عرض أسماء الله الحسنى، ماهي العلاقة بين ذا وذاك؟؟

نحن لا نملك شيئا إلا أن نقول: "إن عظمة القرآن وأسراره وعجائبه لا يمكن أن يدركها إلا من أنزلها وهو الله جل جلاله"، ولكن المشكلة الكبرى تتمثل في كون أمة القرآن، وهي أمة خير الأمم، لم تستوعب عظمة القرآن، من زاوية أنها كثيرا ما تقدم اجتهاد البشر على نصوصه الساطعة والقاطعة! دون أن تتفطن أيضا أو تدرك أن الإنسان، دائما وأبدا هو الإنسان! ذلك المخلوق الضعيف الذي يعتريه النقص،

من هذه الزاوية بالذات تسرب الوهن والضعف إلى هذه الأمة!!.

2 . عملية اختزال الزمان في القرآن الكريم:

إن الفترة الزمنية القصيرة جداً، والتي هي فترة نزول الوحي على الرسول ﷺ وما أعقبها من فترة حياة للخلفاء الراشدين، هي التي أقصدها بـ "عالمية القرآن الكريم" واختزالها

للزمان، إن جميع أحقاب الأزمنة الماضية، وكذا اللاحقة إلى أن تقوم الساعة، مختصرة في فترة عمر نزول القرآن الكريم، وإذا قلنا مثلا، بأن رأس الحيوان المنوي الذي يحمله الإنسان والذي يبلغ 3000/1 ملم فهو يحتوي على جميع خصائص صاحبه من لون بشرته وعينيه، وشعره، وجيناته الوراثية من أبيه وأمه وجده وجدته وجد جده وجدته، وهو أبعد من ذلك فيما ذهب إليه علماء الجينات والوراثة... كلها مختصرة ومختزلة في ذلك الجزيئ الصغير المجهري، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كتاب الله عز وجل، وذلك إذا قسنا عمر وجود هذا الكون، منذ أن خلق الله آدم إلى آخر يوم على هذه الأرض، إن جميع تلك الأيام والقرون الماضية واللاحقة، مختصرة في تلك الحقبة الزمنية القصيرة من عمر الرسالة من حياة خير البشر ﷺ، وهي الفترة الزمنية المحدودة جداً، فترة لا تتجاوز ربع قرن من الزمن، إن تلك الفترة شاهدة على هذه الأمة إلى أن تقوم الساعة كما ذكرت، وهي مقسمة إلى مرحلتين مهمتين، مرحلة مكية وأخرى مدنية، فكان الوحي الأعلى هو الذي خلَّد تلك الحقبة المباركة، وستبقى خالدة وشاهدة على التاريخ إلى يوم القيامة، ببقاء التشريع الأبدي في القرآن الكريم، والذي سيحمل بدوره بصمات أولئك الصحابة وآثار ذلك المجتمع بكل ما فيه من إيجابيات وسلبيات، وهي حقبة مرجعية خالدة في جميع خصائصها ومميزاتها.

والقرآن الكريم هو وحده الذي خلَّد تلك الحقبة وكل ما تتضمن من وقائع وأحداث، وكذا الأشخاص الذين على أيديهم تحققت تلك الأحداث، فالقرآن يؤكد وحدة الدين ووحدة الرسالة السماوية ووحدة الأنبياء، فمن البداهة أن يكون مصدر هذا الدين الواحد هو "الله جل جلاله". قال الدكتور طه جابر العلواني: بذلك يكون القرآن قد حفظ لنا جميع الرسالات السماوية وصحح ما فيها، وأحبط محاولات السابقين من اليهود والنصارى الذين حرَّفوا التوراة والإنجيل، حيث صدّق القرآن عليها وهيمن، وأعاد كتب وصحف الأنبياء صادقة كما أنزلت على أولئك المرسلين، فالقرآن هو المصدر الوحيد بين أيدي البشرية القادر على إثبات حقائق الوجود التاريخي للأنبياء والرسل[4]. وسيبقى القرآن خالداً مخلَّداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هذا هو الذي نقصده بعالمية القرآن وعملية اختزاله للزمان والمكان.

3 – شهادة القرآن العظيم على الناس:

إن شهادة القرآن على الناس، كونه يتضمن سننا كونية، وقوانين إلهية، ونظريات علمية، وأحكاما تشريعية تحكم لهذه الأمة وتشهد لها أو عليها، إلى أن تقوم الساعة، إذا كان الصحابة في تلك الفترة الزمنية القصيرة، حيث كان القرآن ينزل عليهم، والرسول ﷺ بين ظهرانهم، وفق حوادث يعيشونها ويرونها بأم أعينهم، مثل رؤيتهم لعبد الله بن أم مكتوم الذي نزلت في حقه سورة "عبس"، وعائشة زوج الرسول التي نزلت في حقها آيات تبرئ ساحتها من التهمة والافتراء التي رماها المنافقون بها، كما ورد في سورة "النور"، وكذا كلٌّ من غزوة بدر وأحد وتبوك وحُنين والأحزاب، ووقائع وأحداث تتعلق بالمنافقين واليهود، وغير ذلك من الحوادث والوقائع وردت في القرءان والسنة الصحيحة والسيرة النبوية، لا شك أن ذلك النزول على ضوء تلك الآثار الواردة وفق مقتضيات تلك الأحداث، سيزيدهم إيمانا مع إيمانهم، ويقينا مع يقينهم. ثم نقول بكل ثقة: "بعد مرور أربعة عشر قرنا على نزول الوحي على هذه الأمة، بأن نفس القرآن الذي كان يعيشه الصحابة والرسول ﷺ بين ظهرانهم هو نفسه الذي نعيشه اليوم، كأنه ينزل علينا الساعة، فما عليك أخي الكريم إلا أن تتدبر في كتاب الله عز وجل وآياته، وتربط بين الحوادث والوقائع، ثم تقوم بإسقاطها على الواقع، وفق المناهج العلمية المعروفة، التي هي كلٌّ من الملاحظة والاستقراء، والتفسير والاستدلال، ثم الوصول في نهاية المطاف إلى شهادة القرءان على الإنسان في جميع الظروف والأزمان، وذلك إلى أن تقوم الساعة، وهو ما سنتعرض إليه في هذه الدراسة بشيء من التمثيل[5].

لقد جاءت رسالة القرآن إلى كافة البشر، تحمل مقاصد كبرى وأهدافا سامية، لقد جاءت بهدف تأكيد بعض ما جاء في الرسالات السابقة، وتصحيح بعضها الآخر، كما جاءت لتأسيس المبادئ والأخلاق العالية الرفيعة... وهي في مجموعها كما ذكرت، ماسحة لخريطة الزمان والمكان، وأقصد بمسح الزمان، أنها موغلة في التاريخ البشري، بحيث تمتد في أخبارها إلى وصف هذا الكون قبل أن يُخلق على ما هو عليه الآن، منها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[6] (الأنبياء:30). ثم يعرِّج كتابُ الله عز وجل بنا إلى المقام العلوي، لينقل

إلينا حوار الله مع الملائكة في شأن خلق الإنسان واستخلافه على هذه الأرض، ثم قصة خلق آدم، ونزوله إلى الأرض بعد فشله في الابتلاء، ورسوبه في الامتحان، وتاريخ الأنبياء من عهد نوح مروراً برسالة إبراهيم واسحاق ويعقوب وإسماعيل، ويوسف وموسى وعيسى، كما صادق على صحف موسى وتوراته وألواحه، وإنجيل عيسى الصحيح، الذي لم تمتد إليه يد الإنسان بالتحريف، وانتهاء برسالة نبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

أما من حيث تشريعه، فهو يختص بأحكام تشريعية خالدة، مبنية على ثوابت أصوله ومرونة فروعه، إن التشريع الإسلامي استطاع وفق قوانين علمية مرنة ومتكيفة مع طبيعة الإنسان بصفة عامة، أن يستجيب لجميع النوازع البشرية الموجودة في العالم، من يوم ما نزل إلى أن تقوم الساعة، وهو ما تعرضنا إليه بإسهاب وفق عنصر "خاصية مسح الزمان والمكان في التشريع الإسلامي"[7]، وسيبقى القرآن بتشريعه الأبدي خالداً مخلّداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إن جميع ما جاء فيه يصلح أن يكون علاجاً لأية مشكلة من المشكلات البشرية، وفي الوقت نفسه هو المفتاح الذي سنلج من خلاله إلى دراسة موضوع الأقليات في العالم الحديث، كما يصلح أيضاً أن يكون منهجاً علمياً لاستخلاص الكثير من الحقائق العلمية، سواء في العلوم الإنسانية والاجتماعية بصفة خاصة، بل وحتى في العلوم الطبيعية والحياة بصفة عامة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنعام: 38).

المطلب الثاني: فلسفة الأقليات في هذا الوجود وفي القرآن العظيم عرض وتحليل:

إذا انطلقنا من المقدمة السابقة، كون المولى عز وجل قد اختصر هذا الوجود بماضيه وحاضره ومستقبله في القرآن العظيم، توصلنا إلى غرابة ما يكتشفه الإنسان وراء هذه الدراسة المتواضعة، أن موضوع الأقليات وهو حديث الساعة، يشكل المحور الأساسي الذي عليه مدار المجتمع الإنساني برمته، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وعسكريا وحضاريا، وقد يستغرب الإنسان من هذا التعميم ولكن الواقع هو الذي يفرض هذا النوع من التفكير، ونحاول طرح هذه الفكرة ضمن نقطتين، تتعلق الأولى بالأقليات ومبدأ التوازن الكوني في الطبيعة وفي حياتنا اليومية، وتتعلق الأخرى بفلسفة مصطلح القلة والكثرة ومعيار النصر والهزيمة في القرآن العظيم:

1 – الأقليات ومبدأ التوازن الكوني في الطبيعة، وفي حياتنا اليومية:

إن الحياة الطبيعية جُبلت على القلة والكثرة، في أي مجال من المجالات، سواء بالنسبة إلى عالم الحيوانات أو الطيور أو الأسماك النادرة، أو عالم الطبيعة من أنواع الغازات أو المعادن أو السوائل، جميع هذه الأشياء المذكورة تتضمن قانون القلة والكثرة، فهي تمثل سنة الله في خلقه وبديع صنعه، وتشكل في الوقت نفسه توازنا إيكولوجيا طبيعيا، وانعدامها يشكل فقدانا لذلك التوازن، فلو رجعنا إلى طعامنا وحياتنا الغذائية كأبسط مثال، فترانا نعتمد على الكثير من الخضروات، ثم نكتفي بقليل من التوابل، لولا ذلك القليل من الملح وتلك التوابل مثلا، ما استسغنا طعامنا اليومي، إن تلك التوابل على قلتها هي مصدر ذلك التوازن في الغذاء الذي لا يمكن أن نستغنيَ عنه، دون أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع بالنسبة إلى الطبيعة من غازات وحيوانات وأسماك نادرة، ونصل في نهاية المطاف إلى نتيجة مفادها: "إن الله عز وجل خلق قانونا في هذ الوجود، والذي هو قانون التأثير والتأثر، والتفاعل بين الأقلية والأكثرية، في أي مجال من مجالات الحياة، وهو نفس قانون الزوجية الذي خلقه الله عز وجل في الكون، وصرح به في كتابه العزيز، فقال: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(الذاريات: 49)، ويتضح من خلال هذا التعميم، أن الزوجية المعلنة في كتاب الله عز وجل، ليست قاصرة على التأنيث والتذكير كما هو متبادر عند كثير من الناس، إن قانون الزوجية في كتاب الله عز وجل . حسب ما أرى . يشمل كل نظام الكون، فهو يتضمن تقابل الليل والنهار، والشمس والقمر، والسيد والمسود، والرجل والمرأة، والسالب والموجب، والغني والفقير، إضافة إلى قانون القلة والكثرة الذي هو محور هذه الدراسة، وهذا النوع من التقابل يشمل كلًّا من التفكير الكلي والجزئي، والعام والخاص، وهو القانون الذي بنى الله عز وجل هذا الكون بهدف تحقيق مقصد كلٍّ من التوحيد، وكذا الابتلاء، والعمارة والاستخلاف، وغيرها من المقاصد الكبرى وما يتفرع عنها من مقاصد فرعية وجزئية"[8].

2 . فلسفة مصطلح القلة والكثرة ومعيار النصر والهزيمة في القرآن العظيم:

– فلسفة مصطلح القلة والكثرة في القرآن العظيم:

بناء على مبدأ ومقصد التوحيد الذي هو محور هذا الوجود، فإن القرآن العظيم لا يقيم وزنا لمفهوم القلة والكثرة بناء على المعيار العددي، أو غيره من المعايير البشرية، لأن المولى عز وجل يقيِّم الإنسان بمدى إيمانه وارتباطه به، وهو المعيار الأول من مبادئ القيم الحضارية التي أعلنها في كتابه الكريم، وأكبر دليل على ذلك أنه عز وجل جعل نبيه إبراهيم عليه السلام أمة من دون الناس فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾(النحل:120)، والقرآن العظيم في جميع محاوره يرى بأن الذين يتبعون الحق وينصرونه هم جماعة القلة، لأن الإنسان دائما وأبدا يتبع أهواءه ويخضع لشهواته وغرائزه، والآيات في ذلك كثيرة، سواء كان ذلك بالنسبة إلى الأمم السابقة، أو أمة الرسول ﷺ، وهي سنة من السنن الكونية التي جبل الإنسان عليها. إن نبي الله نوحا عليه السلام، لبث في قومه يدعوهم إلى الله جل جلاله ونبذ خرافة الأصنام مدة ألف سنة إلا خمسين عاما، فقال الله عز وجل فيه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾(العنكبوت: 14)، حتى وصل أخيرا إلى حد اليأس والقنوط، فقال عنه الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (نوح: 26-27)، ثم أوحى الله عز وجل إلى نبيه نوح بصنع السفينة فقال: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾(هود:36)، ثم قال المولى عز وجل عنه في الأخير: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾(هود:40).

إن عامة الدعاة إلى الله عز وجل . قديما وحديثا . يعانون من عسر التبليغ وشح الاستجابة، وكأنها سنة من السنن الكونية، لذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (يوسف:103). وكان رسولنا الكريم يرى نفسه مقصرا في جناب الله عز وجل والدعوة التي حمَّلها إياه، حتى قال له المولى عز وجل مسليا: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾(فاطر:7)، لأن الرد من المعارضين وزعماء قريش كان عنيفا ومحبطا للعزائم، حتى قال الله عز وجل مسليا نبيه الكريم وموضحا

إليه أنه غير مقصر في دعوته فقال: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (يس:76) وقال له أيضا في سورة الغاشية: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾. إن هذه الآيات وغيرها توضح معاناة الأنبياء والرسل والدعاة السالكين مسالكهم، لأن الإنسان جُبل على اتباع أهوائه وشهواته، وكثيرا ما يغتر أصحاب الزيغ والضلال بالكثرة الكاثرة في الدنيا، متناسين قدرة الله عز وجل وعذابه، فقال الله عز وجل فيهم حين يرون ما حاق بهم من العذاب: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ (الجن: 24)، وسيقال لهم ذلك اليوم أيضا:﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الأعراف:48).

– معيار النصر والهزيمة في القرءان العظيم:

بناء على ما سبق، جعل الله عز وجل ميزان النصر والهزيمة في الميدان العسكري مع الأعداء هو ميزان الإيمان بالله والتوكل عليه مع الصبر والثبات عند اللقاء، وليس ميزان العدد والعدة وحدها[9]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(البقرة:249). والله قد ضرب لنا مثالين معبِّرين عن حادثتين مهمتين وقعتا في حياة الرسول ﷺ، كل حادثة تعبر عن عمق هذه الفكرة، فئة كثيرة تمثل الغثائية، أمام فئة قليلة صادقة مؤمنة بالله عز وجل، ممثلة في صحابة بدر، حيث أمتنَّا لله عز وجل على النبي وصحابته الكرام حين انتصروا في "بدر" وهم قلة، أمام عدوهم الذي يتفوق عليهم عددا وعُدّة أضعاف مضاعفة، أما الأخرى فتتمثل في غزوة "حُنَين"، وقد كانت بعد فتح مكة مباشرة، حيث بلغ جيش الرسول ﷺ غداة فتح مكة عشرة آلاف مقاتل، ثم انضم إليه ألفان ممن أسلم يوم الفتح ومعظمهم من الطلقاء، وبلغ جيش الرسول ﷺ اثني عشر ألفا، وحلَّ العُجب والغرور في صفوفهم، فقالوا لبعضهم: "لن نُغلب اليوم من قِلّة"، فبلغت هذه المقولة أذن الرسول ﷺ فاستاء لها أيما استياء، ثم دخلوا المعركة مع كثرة عددهم وعُدّتهم وقلة عدوهم وعدته، وأصيب المسلمون يومها بهزيمة نكراء، ووصف المولى عز وجل في كتابه الكريم هذين الموقفين حتى يكونا خير مثالين للاعتبار والاتعاظ إلى أن تقوم الساعة، وأما بالنسبة إلى معركة بدر فهو قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(آل عمران: 123) ثم قال بالنسبة إلى الموقف الآخر المتعلق بغزوة حنين: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾(التوبة:25). إذا عمقنا النظر في موضوع الأقليات وفق هذا المفهوم، فإنه – كما رأينا – لا يوجد شيء في هذا الكون يسمى أقلية أو أكثرية، إذا وحَّد الإنسان خالقه وانتصر لرسالته.

إن القرآن العظيم يصرح ويشير في آيات كثيرة، بأن الأقلية من الناس هي التي تتمسك بالحق وتستميت في الدفاع عنه: إن عشرات الآيات في كتاب الله توضح أن الجماعة المؤمنة بالله حق الإيمان، هي جماعة نوعية ومثالية كما رأينا، قال تعالى في ذلك: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ: 13).

المحور الثاني: أهمية الدراسات النفسية وعلاقاتها بتحليل الأحداث التاريخية والعلوم الاجتماعية:

تمهيد:

إن التغاضي عن تحليل الأحداث بعيدة عن التفسيرات النفسية في العلوم الاجتماعية بصفة عامة، والتاريخية بصفة خاصة، تجعلنا بعيدين عن فهم كلٍّ من واقعنا الاجتماعي الراهن والتاريخي الغابر، وبالتالي معالجة مشكلاتنا الراهنة والعالقة بتاريخنا الموروث، لأن الواقع المعيش هو امتداد للماضي والمستقبل، وحتى نفهم ونستوعب الأحداث التاريخية يتعين قراءتها وتحليلها من الزاوية التحليل النفسي والاجتماعي، لقد استطاع العلامة ابن خلدون أن يتبوأ مركز الصدارة في تأسيس علم الاجتماع بناء على قراءة الأحداث التاريخية قراءة علمية وفق قوانين التطور العمراني، على ضوء من التحليل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ثم الخروج بنظريات تؤسس لفهم التاريخ باعتباره أصعب وأخطر علم في العلوم الإنسانية، لقد اختصر العلامة ابن خلدون معظم القوانين العلمية ثم أقامها على قانونين أساسيين: "قانون السببية أو العليّة، إضافة إلى قانون التشابه"[10].

إن الدراسة النفسية تتعرض بالدرجة الأولى إلى تحليل السلوك أو التصرف لدى الإنسان، والشيء المهم في الموضوع أن بين كلٍّ من التفكير المشحون بالمشاعر، وبين التصرف حلقة مهمة تسمى بـ"الدافع" للقيام بالتصرف، وهو ما يحملنا على دراسة التصرفات المنحرفة عند الإنسان، والتي يمكن اختصارها في "فلسفة الأنا عند إبليس"، وما يترتب عنها من نتائج وصراع في العالم.

وأرى أيضا أن جميع الشرور والمعاصي والآثام في هذه الحياة يشملها ويكتنفها من قريب أو بعيد مضمون مقولة إبليس: ﴿أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، وأول مصطلح يدخل في الموضوع هو "الأنانية"، وكل ما يتفرع عنها من الأنا الذاتي والفرعي والجمعي، سواء تعلق ذلك الأنا بالظرف الراهن، أو الماضي التاريخي، أو ما يمكن أن يطرأ في المستقبل، و"الأنا" في حقيقته مرض نفسي بالدرجة الأولى[11]، ويقوم على ثلاثة أشياء غير منفصلة عن بعضها، وهي كلٌّ من الكبر والغيرة والحسد، وهي أمراض جميع المكلفين على هذه الأرض، وتؤول جميعها إلى الصراع والفساد وسفك الدماء في هذا العالم، وهو ما نحاول معالجته ضمن هذا المحور، ونقسم الموضوع إلى نقطتين، تتعلق الأولى بتحليل فلسفة الأنا وإثبات الذات، وما يترتب عنهما من صراع في العالم، وقراءة الموضوع قراءة تاريخية وفقا لمنهج القرآني. أما الثانية فهي تتعلق بتحليل مقولة إبليس لله عز وجل: ﴿أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، وما يترتب عنها من نتائج.

أولا: فلسفة الأنا وما يترتب عنها من صراع في العالم، وقراءة الموضوع قراءة تاريخية وفق المنهج القرآني:

إن إشكالية الصراع في هذا الوجود قديما وحديثا ومستقبلا، تقوم على السؤال الذي طرحته الملائكة عبر أول قصة أتى على ذكرها المولى عز وجل في "سورة البقرة"، حين أخبرهم بأنه مستخلف في الأرض خليفة بشرية، وفي ذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾، فقالوا متسائلين: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة:30). ويبقى لغز إسالة الدماء في هذا العالم لغزا مستمرا ومعقدا منذ أن وطئت قدم أبينا آدم هذه الأرض، ابتداء من الصراع بين بنيه، كما جاء ذلك صريحا في كتاب الله عز وجل[12].

ومن عجائب ما يكتشفه الإنسان وراء هذه الدراسة، أن منطلق التنافس وما يترتب عنه من صراع في هذا الكون لم يبدأ بخلق آدم كما يرى عامة الناس، بل هو آيل في القدم بين الجن والملائكة، وهو ما سنوضحه في هذه الدراسة، ومنهج البحث فيها يقوم على المنهج التاريخي في القرآن العظيم، إضافة إلى علاقة الموضوع بفلسفة الصراع في الأرض، والمنهج التاريخي بدوره يقوم على ثلاث قواعد أساسية، قاعدة التثبت في الرواية التاريخية، إضافة إلى النظر في بدء الخلق، وكذا قاعدة الاعتبار بالتاريخ[13]، والتي هي المقصد الأكبر لدراسة التاريخ.

1- الرؤية التاريخية للموضوع وفق المنهج القرآني:

إن الشيء الذي يهمني في هذه الدراسة هو التركيز على قاعدة "النظر في بدء الخلق"، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(العنكبوت:20)، مع إلقاء نظرة سريعة على قاعدة التثبت في الرواية التاريخية.

قاعدة التثبت في الرواية التاريخية: إن القرآن العظيم قد توسَّع في موضوع التثبت والصدق، ليس في مجال التصريح القولي أو عرض الحدث عن طريق الرواية فحسب، بل في جميع مجالات الحياة، ولما ذكر الله عز وجل الرواية التاريخية في القرآن الكريم قال عنها: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف: 111).

منهج "النظر في بدء الخلق" رؤية استقرائية لجميع أحداث العالم: لقد استعصى علي فهم قوله تعالى: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، منذ أن كنت تلميذا أحفظ القرآن في المرحلة الابتدائية من مدرسة الحياة بالقرارة، في تلك الفترة المبكرة من العمر، قذف الله عز وجل في قلبي نوعا من التساؤل عن العلاقة بين السير في الأرض والنظر في بدء الخلق؟ ولكن الأستاذ "جودت سعيد"، فتح لي نافذة البحث بعد قرابة خمسين سنة أو تنقص، حين قال تعليقا على الآية: "إن الإنسان يظن أن العالم خُلق في لحظة واحدة كما هو الآن، من جبال ونجوم ونباتات وحيوانات... (جميع هذه الكائنات) لها تواريخ وكيفية

لبدء خلقها، فمعرفة هذه الكيفية لبدء خلقها تلقي ضوءا على كيفية بدء صيرورتها في المستقبل...". ثم يقول الأستاذ جودت: "وهذه الكيفية الماضية أمر القرآن بالنظر إليها والسعي لتأملها، وبعد أن تتحقق هذه الكيفية الماضية يحصل لدينا تلقائيا، التصور للمستقبل وما يحتويه من إمكانات، إن من لا يملك كيف بدأ الخلق، لن يستطيع أن يتخيل وأن يتصور المستقبل كيف يضمر الحاضر"[14].

ثم يقول أيضا: "لقد ترسخ في أذهان المسلمين كيفية معينة لنشوء الخلق، من خلال الوقوف على حرفية النصوص المقدسة، وليس من السير في الأرض ... وهذا الرسوخ كان سببا في إهمالهم وعدم التفاتهم إلى الآية الواضحة التي تحدد مصدر معرفة "كيف بدأ الخلق من السير في الأرض"، ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾. إنني لم أجد عند المسلمين بحثا واحدا أدخل هذه الآية على أنها متصلة بهذا الموضوع ... ثم يقول أيضا: "إن البحث في معرفة بداية الخلق تقودنا إلى قيمة معرفة بداية أي شيء في هذا الوجود، كيف بدأ ونما ثم تطور، سواء تعلق ذلك بالإنسان، أو الأفكار أو المذاهب أو المجتمعات أو الأمم والحضارات. إن عمليةَ استحالةِ الأشياء وتغيُّرِها وتبدلها آية من آيات الله في خلقه، ومعجزة من معجزاته، وهي شاملة لكل ما في هذا الوجود"[15].

2- منهج "النظر في بدء الخلق" وعلاقته بفلسفة الصراع في الأرض:

إن النظر والتأمل في بدء الخلق كما أمر الله عز وجل، مفتاح البحث وفهم ما يقع في العالم من صراع، ومحور الموضوع يعود دائما إلى مقصد استخلاف الإنسان على هذه الأرض كما رأينا، عبر أول قصة تعرض لها القرآن الكريم في أول سورة بعد فاتحة الكتاب، والتي هي "البقرة"، وراء السؤال الذي طرحته الملائكة على الله عز وجل حين أخبرهم بأنه مستخلف في الأرض بشرا، فقالوا سائلين: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾. بذلك كانت عملية استخلاف الإنسان في هذه الأرض كما رأينا، منوطة بالفساد وما يتفرع عنه من قتل، وسفك للدماء... ولكن عند التأمل في الدافع للفساد وسفك الدماء في الأرض، نجد أن مصدر جميع تلك الجرائم يعود إلى مقولة

"إبليس" لله عز وجل حين تحداه قائلا: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ (ص)، ولفظة ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ ﴾ تتضمن معنى الاستعلاء والحسد، وكل ما يتفرع عنهما من ظلم واستحواذ على أموال الغير، عن طريق الغيرة وأكل حقوق الناس بالباطل، لذلك كانت تلك الكلمة الخبيثة "أنا خير منه" جامعة لكل الشرور، وهي مصدر الصراع في العالم.

المطلب الثاني: تحليل مقولة إبليس لله عز وجل ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ ﴾ وما يترتب عنها من نتائج:

سبق أن رأينا بأن مقولة إبليس: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ ﴾، بمثابة الكلمة الخبيثة التي هي مصدر جميع الشرور والمعاصي في هذه الحياة، و"الأنا" وفق هذا المفهوم قد توسع فيه علماء النفس، فرأوا أنه يولد مع الإنسان لأنه من غرائزه، وهو يرمي إلى التطلع وإثبات الذات، ويخلق جوا من المنافسة والصراع، وخطورته تظهر بوضوح عند انحرافه عن منهج الله عز وجل، وهو ظاهر بوضوح في مقولة إبليس كما رأينا[16]. والأنا ينقسم إلى نوعين: الأنا المعنوي والأنا المادي .

فالأنا المعنوي: يتمثل في الكبر والغرور، وهو من أخطر أمراض القلب كما رأينا، وقد عبر عنه إبليس بلفظ صريح، ويتفرع عنه مسألة التمييز، بذلك يكون إبليس أول من أسس للتمييز، سواء تعلق ذلك بالتمييز العنصري أو الجنسي أو العرقي، وكذا الاصطفاء الطبقي والاجتماعي، فهو ينطوي على إثارة الضغائن والكراهية بين الأجناس والشعوب على مستوى العالم، وكلها أمراض متولدة من الأنانية وحب الذات، سواء تمثل ذلك الأنا في الفرد أو الطائفة، وهو كلٌّ من الأنا الفردي والجمعي.

أما الأنا المادي: فهو يتمثل في عملية الاستحواذ على ما في أيدي الآخرين، كالسرقة والغصب والاحتيال، بهدف تحقيق منافع مادية، إن عملية الصراع بين الشعوب تقوم على أهداف سياسية ومصالح اقتصادية، إن استغلال الحكام للشعوب، أو الأقوياء للضعفاء، معظمها يعبر عن أنانية مصلحية وأهداف اقتصادية، بهدف إشباع الغرائز. ونخلص في الأخير أن جميع الصراعات الموجودة في العالم لا تخرج عن معنيين من معاني الأنانية، سواء تمثلت في الأنا المعنوي أو المادي، وكذا الأنا الفردي أو الجمعي.

1- مكانة النفس لدى الإنسان أمام مسؤوليته الشخصية:

هناك ملحظ دقيق أشار به عليَّ أحدُ الأصدقاء، يتمثل في طرح التساؤل التالي: إذا كان منطلق الإغواء في هذا الوجود هو الشيطان الجِنِّي، والذي هو بمثابة نقطة الصفر في التضليل، ويبقى السؤال متمثلا في البحث عن مصدر الغواية لدى الشيطان نفسه، أو بمعنى آخر، فمن هو شيطان الشيطان الذي حمله للتكبر على الله عز وجل في عدم السجود لآدم؟

إن الجواب على ذلك يتمثل في النفس التي بجنب أي واحد منا، وهي بمثابة الشيطان الأول لكبير الشياطين، وهي أخطر مئات المرات من وسوسة الشيطان الجني، وأكبر دليل على ذلك أن الله عز وجل قال بصريح العبارة في سورة النساء: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

2- خطورة النفس وأهميتها لدى الإنسان وعلاقتها بالتغيير وفق الرؤية القرآنية:

خطورة النفس لدى الإنسان: إذا كان الله عز وجل قد حكم على ضعف كيد الشيطان أمام الإنسان، ولكن كيف نستطيع أن نكتشف خطورة النفس لدى الإنسان؟ وهنا يتعين علينا طرح جملة من الأسئلة تتمثل فيما يلي: ما هو أطول قسم في كتاب الله عز وجل؟ وما هو الشيء الذي أقسم به الله عز وجل؟ وما هو الشيء المقسم به؟.

سبق أن رأينا أعظم قسم في كتاب الله عز وجل يتعلق بعظمة كتابه الكريم، والشيء الذي أقسم به هو مواقع النجوم، المتعلق بعلم الفلك وما يحتوي من ملايير المجرات، والعجيب في الأمر أن نجد أطول قسَمٍ في كتاب الله عز وجل بدوره يتعلق بعلم الفلك وارتباطه بالنفس الإنسانية، وما يترتب عنها من فلاح عند التزكية، وخيبة في حالة التدسية. إن الله عز وجل قد افتتح سورة الشمس بسلسلة من القَسَمات فقال: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الشيخ سعيد محمد كعباش: "يقسم الله تعالي في مفتتح سورة "الشمس"، بسبع ظواهر كونية تباعا، ويدمج معها النفس الإنسانية في تسوية خلقتها، وتزويدها

بالاستعدادات الفطرية، ليركز في جواب القسم على تبعات الإنسان الشخصية في توجيه نفسه وتبعته في مصيرها، ويكون القاسم المشترك بين تلك الظواهر هو التغيُّر والتبدل، من ضياء النهار إلى ظلمة الليل، ومن ارتفاع الشمس إلى انخفاض الأرض، ومن النفس النقية إلى النفس الفاجرة..."، ثم يقول الشيخ كعباش: "إن هذا الربط بين النفس البشرية واستعداداتها الفطرية، وبين حقائق الكون ومشاهده الكبرى معنى عظيما، يضفي على الإنسان معنى التفضيل من جهة، ويضعه من جهة أخرى أمام مسؤولياته وتبعاته الشخصية، وهو كامل الوعي بما يأخذ وما يذر، مطلق الإرادة بما يختار.

ثم يقول تعالى في المقسم عليه: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾، لقد قابل الله عز وجل بين التزكية وفي معناها التطهر، وبين التدسية وفي معناها الإفساد والإخفاء وهي ضد التزكية، وكلٌّ من التزكية والتدسية تنبثقان عن فعل إرادي يوجهان الإنسان إلى تحقيق إحداهما في سلوك عملي يدرك نتائجه ويتحمل تبعاته[17] .

أهمية النفس لدى الإنسان: نستخلص من ذلك أن النفس هي القوة المتشكلة من قوى الذات في الإنسان، وهي الوعاء الجامع لهذا التفاعل، يقول تعالى في الآيات السابقة: وقال أيضا: ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ (الإنسان،3) ونستخلص أيضا أن النفس في الإنسان ليست هي الروح الخالصة، وليست هي العقل على وجه التحديد، ويمكن القول بأن النفس هي القوة الحيوية في الإنسان، والتي تشمل قوى الإرادة كما تشمل قوة الغريزة، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية، لذا فهي تأتي في الآيات القرآنية مرادفة للقوة التي تلهم الفجور أو التقوى، يقول تعالى: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ ﴾ (الانفطار، 5)، ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴾ (القيامة،14).

علاقة النفس بالتغيير: إن النفس الإنسانية تتضمن كل مقومات صاحبها، لذلك جعلها الله عز وجل محل تكليف ومسؤولية وطموح لمن أراد التغيير، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾(الرعد،11). إن نقطة الانطلاق في التحول الإصلاحي لأي مجتمع من المجتمعات، تبدأ بحدوث تحول إيجابي داخل البناء النفسي للفرد أو المجتمع، مصداقا للآية السابقة، وفي الوقت نفسه جعل المولى عز وجل "النفس" نقطة

تحول من الإيجاب إلى السلب عند فسادها، مصداقا لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾.

المحور الثالث: تحليل فلسفة "الأنا" في القرآن ضمن التفكير الكلي والجزئي وإشكالية صراع الأقلية والأكثرية:

سنحاول تقسيم هذا المحور إلى نقطتين، تتعلق الأولى بتحليل فلسفة "الأنا" ضمن التفكير الكلي والجزئي، وإشكالية أصل الصراع في العالم، وتتعلق الاخرى بجدلية التوازن بين الأقلية والأكثرية في عالم الدعوة إلى الله مع عرض نماذج من التفاعل بين جماعة الأقلية والأكثرية ومآل ذلك.

المطلب الأول: تحليل فلسفة "الأنا" في القرآن ضمن التفكير الكلي والجزئي، وإشكالية أصل الصراع في العالم:

1 – عالمية القرآن واختزال مشكلة أصل الصراع في العالم قبل بدء الخلق:

إن فكرة عالمية القرآن واختزال أحداثه، من جملة النقاط التي عالجناها في مقدمة هذه الدراسة، وستظل فكرة مهمة في تحليل ما يقع من أحداث في هذا العالم، وممّا استرعى انتباهي ضمن تحليل فلسفة "الأنا" وإشكالية أصل الصراع في هذا العالم، بالإضافة إلى الدعوة في فكرة "النظر في بدء الخلق"، وجدت أن الله عز وجل قد اختزل مسألة الصراع في العالم قبل بدء خلق هذا الكون الذي نعيش فيه، وذلك ضمن منهج التفكير الكلى والجزئي، وأصل الموضوع يعود إلى أن الله عز وجل قد أوجد ملائكة في هذا الوجود، بجانبهم إبليس، وتذكر الروايات أن إبليس كان مع جملة الملائكة، وكان أعبدَهم[18]، ولكن لما أمره المولى جل جلاله للسجود لآدم استنكف واستكبر، وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة "ص": ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ إن الشيء الذي شد

انتباهي لهذه الحادثة التاريخية هو التأمل والنظر في بدء الخلق، كما أمر الله عز وجل، كون إبليس كان أعبد من الملائكة، ومع ذلك سقط في الامتحان، وهذا يحملنا للتساؤل: لماذا كان أعبد من الملائكة ومع ذلك لم يستطع السجود والخضوع لأمر الله عز وجل؟

ما هو الفرق بين العبادة السابقة واللاحقة بالنسبة إليه؟

إن الشيء الجوهري في الموضوع حسب رأيي يتعلق بشيئين أساسيين، الشيء الأول: هو خطورة النفس التي بين جنبي إبليس، والسياق للآيات الواردة في الموضوع يشير إلى أن عبادته لله عز وجل مع الملائكة كانت تتسم بالعجب والغرور، بعيدة عن الصدق والإخلاص، والشيء الثاني: يعود إلى المصدر الذي خُلق منه كلٌّ من إبليس وآدم من جهة، مقارنة بخلق إبليس مع الملائكة من جهة ثانية، نحن نعلم بأن الملائكة أجسام نورانية، وأصل خلق إبليس كان من نار، قال الله عز وجل في سورة الحِجر: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ وجاء في التفسير: "يقصد بالنار السموم، النار التي لا دخان لها، وقيل لجهنم سموم"[19]. وهنا يأخذنا الموضوع إلى فهم مقصد من المقاصد الكبرى لخلق هذا الكون، وهو "مقصد الابتلاء"، إن إبليس لما كان مع الملائكة كان في جو من المنافسة بالنظر إلى أصل تكوين كلٍّ منهما، هناك مفاضلة حقيقية بين أصل الخلقة التي خلق منها إبليس مقارنة بالملائكة، وتتمثل تلك المفاضلة في الفرق بين النار والنور، وتلك المفاضلة ذاتها تتجسد بين النار والطين، وهو ما عبر عنه بإبليس بصريح العبارة حين سأله الله عز وجل: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

أرى والله أعلم أن تلك المفاضلة في أصل الخِلقة، إضافة إلى عبادة إبليس بجانب الملائكة، والتي هي عبادة اختيارية تنافسية، هي مصدر الابتلاء والسقوط في الامتحان، المتمثل في الإعراض عن السجود لآدم بالنسبة إلى إبليس من جهة، ولجميع المكلفين من إنس وجن من جهة ثانية، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الأطوار والمراحل التي مرَّ بها آدم من كونه تراب، ثم تحوله إلى طين، ثم مروره بمرحلة تنفر منها النفس، غير لائقة للسجود بالنسبة إليه، وهي مرحلة الحمأ المسنون[20]، وهو ما عبر عنه إبليس بصريح العبارة في سورة

الحجر حين قال: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾، فيتضح من خلال ذلك المشهد العلوي حقيقة أصل الصراع في هذا الوجود، بأن معظمه إن لم نقل كله مبني على مشكلة التنافس وما يتفرع عنه من حسد، إضافة إلى مسألة التمييز والاصطفاء العرقي والطبقي والاجتماعي، ويدخل في ذلك ضمنا، عامل الكثرة والقلة بين الأجناس، وادعاء المفاخرة والتفاضل بينهم، بهدف تحقيق مقصد الابتلاء الذي من أجله خلق هذا الكون، وهو ما جعل القرآن العظيم يرد أصل خلق الإنسان إلى التراب، ثم بعد ذلك إلى الماء المهين، قال تعالى في معرض حديثه عن أصل خلق الإنسان في سورة السجدة: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾. إن جوهر المشكلة عند إبليس وغيره من البشر، يعود إلى شيء واحد، هو: "الخضوع أو عدم الخضوع والامتثال للقرار الإلهي"، بالدرجة الأولى[21].

وهناك ملحظ آخر يسترعي الانتباه وهو متوقف دائما على مبدأ التفكر و"النظر في بدء الخلق" كما أمر الله عز وجل، وهو مستخلص من الصراع العلوي والتنافس الحاصل بين إبليس والملائكة، ثم ما أعقبه من تشريف للسجود لآدم بعد خلقه من طين، وفلسفة هذا الصراع تقوم على الحسد بالدرجة الأولى، وما يتولد عنه من نكوص وارتداد، وهو نفسه عند إبليس، كونه يبدأ بالتنافس الشريف، وبعد خضوع صاحبه للامتحان يتطور (عند مرضى النفوس)، إلى حسد ناتج عن كبر واستعلاء، ويترتب عنه فساد في الأرض وسفك للدماء، وهو نفس الصراع الذي نعيشه اليوم على هذه الأرض، وقد اختزله الله عز وجل في عالم الملكوت قبل بدء الخلق، وللتوضيح أكثر نسوق نصوصا قرآنية في الموضوع تتعلق بفلسفة الكبر وما يتعلق بها من حسد ونظرة دونية وإنكار عبر العنصر التالي.

2 – فلسفة الكبر في القرآن وما يتعلق بها من حسد ونظرة دونية وإنكار:

إنّ فلسفة الكبر في هذه الحياة، كما ذكرت، تعود إلى نقطة جوهرية واحدة، تتعلق بمرض "الأنا"، وهي مجسدة في قول إبليس: "أنا خير منه"، وهي التي كانت بينه وبين الملائكة حين حملته على التنافس، ثم صارت بينه وبين أبينا آدم من جهة ثانية، وهي نفسها في جميع المجتمعات، حيث نجد معظم الصراع في هذا العالم يدور في فلك التنافس والحسد الذي رأيناه في الملكوت الأعلى قبل خلق الكون.

إذا استقرأنا النصوص القرآنية، وتأملنا في الأقوام التي عارضت أنبياءها ورسلها، وقمنا بتحليل أصل تلك المعارضات، وسلطنا الضوء على بعض الأحداث التاريخية التي يتعسر فهمها بمعزل عن الدراسات النفسية وتقلباتها، من حالة إلى أخرى ومن ظرف إلى آخر، بموجب الأطماع والغرائز الإبليسية التي تحرك الإنسان وتتحكم فيه، فنجد الإنسان "المريض النفس"، حين يكون في موقف وموقع مُعيَّن، وفق معطيات وظروف مُعينة، نجده يُصدر أقوالا وتعهدات، وعندما تتغير الظروف والمعطيات تتغير مواقفه ومطالبه وفقا للظروف الجديدة، بناء على الأطماع أو الحسد أو النظرة الدونية، وأوضح مثال لذلك اليهود وموقفهم من العرب الذين يرون فيهم الدونية والأمية، قد كانوا في وقت من الأوقات يتعهدونهم بالنصرة والوقوف بجانب النبي الجديد الذي سيبعث فيهم، فلما جاءهم الرسول ﷺ كفروا به، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وفي ذلك يقول الحق جل جلاله في سورة البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ وهو نفسه عند العرب أيضا، حين تعاهدوا مع أنفسهم بالأيمان الغليظة لئن جاءهم رسول ليكونن أهدى من الأمم السابقة، ويريدون بذلك اليهود والنصارى، ولما حقق المولى عز وجل مطلبهم نكصوا على أعقابهم، وفي ذلك يقول الحق جل جلاله في سورة فاطر: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾. وهناك نظرة أخرى تدور في فلك الكبر والأنانية صرح بها القرآن العظيم في أكثر من مكان، تتعلق بالنظرة المثلية وما يترتب عنها من ارتداد ونكران، وهي متمثلة في النقطة التالية.

3 – النظرة المثلية في القرآن وما يترتب عنها من إنكار:

إنّ الله عزّ وجلّ جعل معيار الاصطفاء في عباده قائما على قيم ومبادئ قرآنية بحتة، وهو ما يصطدم والمفاهيم الترابية لدى معظم الناس، كثيرا ما اعترض الكفار على الله عز وجل مسألة الاصطفاء في النبوة، محتجين على الله أن يكون الرسول رجلا منهم، وقد

استفتح المولى عز وجل سورة "يونس" بهذا الاستغراب فقال: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾. إن لفظة: ﴿رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ هي المشكلة الرئيسة بالنسبة إلى تلك الأقوام، انطلاقا من المثل القائل: "مزمار الحي لا يطرب"، لا زلت أذكر ونحن تلاميذ في القسم، كثيرا ما يصطفي المعلم طالبا منا يتميز علينا بالجد في العمل والأخلاق في السلوك، وقد يفوضه بالقيام ببعض الأعمال المساعدة كالحراسة علينا، وكنا نحن التلاميذ المشاغبين نضفي على ذلك الطالب كل الألقاب المسيئة، ونسمه بالتلميذ الواشي واعتباره خائنا يرفع أسرارنا للمعلم، إن المشكل في أصله سيكولوجي مبني على محض الحسد، بحيث لو ولَّى المعلم أو المدير تلميذا يحرسنا من غير قسمنا لقبلنا إمارته علينا، إن عملية التنكر للحق مسألة لها جذور معرفية في كتاب الله عز وجل، وهي مبنية على أساس من الابتلاء المتوقف على الاصطفاء، كابتلاء إبليس بآدم كما رأينا، وابتلاء قريش بالرسول ﷺ، من جملة اعتراضاتها عليه قولهم في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾.

إن الأكثرية ترفض أن تكون النبوة في الأقلية المستضعفة، وهذه سنة المستكبرين في الأرض، ولكن الله رد عليهم مباشرة في الآية السابقة بقوله: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾. وتتجسد هذه المعاني في أتباع نبي الله نوح عليه السلام، قال الحق جل جلاله في سورة الأعراف: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأٞ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣﴾. إن السبب الحقيقي في امتناعهم عن اتباعه، هو تعجبهم من نزول الذِّكر على "رجل منهم". لأن النبوة ميزة إلهية عظيمة، إذ كيف بنظرهم أن يتصل الله بهذا الرجل ويمنحه النبوة دونهم، وهنا تتجسد الصفة الإبليسية" أنا خير منه"، فهي تحضر في عرض إشكالات وحجج عدة، فالكبر هو الذي يمنعهم من اتباع هذا النبي، لأنه "بشر"، و"رجل منهم"، لماذا؟ لأنهم

يختارون أحد أمرين: إما أن يبعث الله رجلاً بعد موافقتهم أو اختيارهم، بحيث يكون الله عز وجل تابعاً لقوانينهم، وإما أن يُرسل رسولا ملَكا فهذا أسهل على نفوسهم من بعث رجل منهم، لأن بعث المِلَك يشبع كبرهم وغرورهم، ولا يجعلهم أذلاء باتباع" رجل منهم[22]". فإرسال رسول من البشر مقصد إلهي لاختبار الناس، حتى يرفع عنهم سلطة القهر في هدايتهم طريق الحق، فهم يستغربون كيف يختار الله بشراً دون بشر؟ ولكن مقاييسهم غير مقاييس الله، فالله لا يريد جمع الناس كما يجمع الراعي أغنامه، بل يريد تمحيصهم وابتلاءهم بنبوة الرُّسل وما تتضمن من شرائع وقوانين، فليس لهم حق مشاركته في اختيار الرسول، وهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وبالتالي يستطيعون الكفر والتكذيب باختيار تام، حتى تتحقق فيهم سنة الابتلاء بالتمييز بين الحق والباطل، قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠ ﴾ .

إنّ الله عزّ وجلّ قد ابتلى فرعون بموسى وقومه، فقال الحق جل جلاله في سورة المؤمنون: ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٤٤ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٤٥ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ٤٦ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ ﴾. إن ابتلاء البشر بالنبوة سنة إلهية، وأنها سبب هداية الناس أو كفرهم، فالمهتدون يكونون قد نجحوا في ترويض أنفسهم بالتواضع، والتسليم لله والخضوع له، كما أن كفر غيره مكان بسبب النبوة أيضاً، المتمثل في عدم اتباع "رجل منهم"، وقد جاء ذلك في كثير من الآيات منها قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ ﴾.

المطلب الثاني: نظرية التوازن بين الأقلية والأكثرية في الحقل الدعوي، وما يترتب عنها من صراع:

تمهيد:

إذا كانت نظرية التوازن في الأرض كما رأينا، متعلقة بالجانب الإيكولوجي وتنوعه في الطبيعة، وبالأغذية التي تتوقف عليها حياتنا، وبتعدد وتنوع الأجناس البشرية في المعمورة، والحيوانات المتوحشة في الغابات، وكذا الهوام والحشرات فيها، والحيتان في البحر، بموجب قانون القلة والكثرة، فإنّ هناك نوعا من التوازن في عالم الدعوة إلى الله عز وجل ضمن تلك الأقليات نفسها، وسنحاول في هذه الدراسة المقتضبة أن نسلط الضوء على نوع من الأقليات تسمى بالأقليات النموذجية، وما تثيره من مشكلات سواء تعلقت بالإصلاح أو الإفساد، على ضوء تلك المشكلات نتعرض إلى فلسفة الصراع في بيت نبي الله يعقوب، وتعقبها دراسة على الأقليات المتذبذبة، وما لها من علاقة وطيدة مع الأقليات النافذة، ثم نختم الموضوع بنوع من الأقلية النافذة وانعكاسها على المجتمع القرشي في مرحلة النّبوّة.

1 – الأقليات النموذجية النافذة ودورها في الإصلاح أو الإفساد للمجتمع:

يتفق علماء علم الاجتماع أنّ أخطر أنواع الأقليات، هي الأقليات النموذجية النافذة، وتسمى أيضا بالأقليات الاستراتيجية، إن أي مجتمع من المجتمعات أو دولة من الدول، سواء كانت متخلفة، أو حتى راقية مثل الولايات المتحدة وغيرها، تسيرها وتتحكم فيها الأقليات الاستراتيجية النافذة، وذلك في ظل غياب الأمة الإسلامية عن الساحة بطبيعة الحال، إن البيت الأبيض في الولايات المتحدة تتحكم فيه الصقور وتبقى الحمائم تبعا لها، وينعكس ذلك التحكم ليس على نفس الدولة بل على مجلس الأمن، وما يترتب عنه من انعكاس على العالم برمته، إن الأقلية اليهودية في الظرف الراهن هي المتحكمة في مصير العالم، بموجب تحكمها في الولايات المتحدة وفي مجلس الأمن، وفي ذلك يقول الدكتور "طارق سويدان" ضمن موضوع "التغيير الحضاري بين الشعوب والأمم"، قال فيما معناه: "إن الداعي إلى الله عزّ وجلّ لا ينبغي أن يتأثّر بالجماهير والحشود التي تملأ المنتديات والمراقص وأماكن اللّهو والفساد، إنّ عمليّة التّغيير ترتبط بالنّوعيّة والأقلّيّة التي يُعوَّل عليها في عملية التّغيير، ثمّ قال:

" إنّ المؤثّرين في الأغلبيّة هم قلّة، يتراوح عددهم مابين 03 إلى 05 % فقط"[23].

أرى صواب فكرة الدكتور "طارق" من زاوية ما يلاحظه الإنسان، أنّ جميع الانتفاضات والثّورات، والاحتجاجات في أيّ مجتمع، وكذا الاعتصامات الطّلابيّة والإضرابات، يفكر ويقوم بها طالب واحد، فيلتحق به الآخرون، سواء كان ذلك بالنسبة إلى الحركات الإصلاحية أو الإفسادية، وهو ما يمكن أن يطرحه الإنسان على المستوى الكلي والجزئي، على المستوى الدولي والعالمي، أو على مستوى الدولة الواحدة، أو على مستوى القرية أو الطائفة أو العشيرة، وحتى على مستوى البيت الواحد بين الإخوة والأخوات. وهذا ما وقع بالذات في بيت نبيّ الله يعقوب كما سنرى لاحقا، ووقع أيضا شيء من الاضطراب في بيت الرسول ﷺ حتى اضطر إلى هجر نسائه شهرا كاملا، والعامل المحرك لذلك الاضطراب هو كلٌّ من زوجتيه عائشة وحفصة رضي الله عنهما، وتلعب المكانة المعنوية عظيم الأثر في تحريك ذلك الصراع وخلق الاضطراب، لأن لكلٍّ من أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، مكانتهما الخاصة في شخص الرسول ﷺ وكذا بقية الصحابة في المجتمع الجديد "المدينة المنورة"، إن الشيء الذي ينبغي ألّا يغيب عن الأذهان أنّ المجتمع البشري له خصائصه ومميزاته، ولا يمكن أن تفارقه سواء كانت في مجتمع الصحابة وزوجات الرسل والأنبياء، أو أي جنس آخر، وهي تشكل ضرورة وجودها في العالم، لتحقيق مقصد العمارة في الأرض والاستخلاف السياسي والاقتصادي، التي هي من جملة المقاصد الكبرى الضرورية لخلق هذا الوجود.

2 – نموذج من القصص القرآني يوضح فلسفة الصراع في بيت نبي الله يعقوب، ومسألة الوقوف على الحياد:

من خلال دراستي لموضوع الأقليات وإشكالية الصراع في العالم، وتعرضي لتاريخ اليهود في مرحلة وجودهم في بيت جدهم "إسرائيل" أي "يعقوب" في أرض الكنعانيين، فلسطين، منَّ الله عليَّ بملاحظة تكشف جانبا من مصدر الصراع المحتدم في بيت نبي الله "يعقوب" عليه السلام بين أبنائه العشرة من جهة، ويوسف وأخيه بنيامين من جهة ثانية، كونه صراع يعود إلى فلسفة القانون الذي يحكم الصراع في العالم، والذي هو قانون القلة والكثرة، والانضمام إلى الأقوى أو الوقوف على الحياد، وهو بدوره نوع من التفكير الكلي والجزئي

الذي يحكم هذا العالم، يجب أن نضع في عين الاعتبار أن الجنس البشري يحمل جميع خصائصه الخِلقية والخُلقية، من عاطفة حب وجود وكرم، ومن ذاتية وأنانية، وحقد وعداوة، ولو كان ذلك في بيت النبوة، ووجوده في بيت نبي الله يعقوب هو نفسه، في أي مؤسسة وِزارِية، أو إدارية، أو علمية، أو روحية مثل المسجد، أو كلية الشريعة، وهو نفسه في القرية والبلدة والدولة، وفق سنة التدافع التي أودعها الله عز وجل في الكون.

وإذا عدنا إلى تاريخ اليهود في العالم، انطلاقا من التفكير والنظر في بدء الخلق، كما أمر الله عز وجل في كتابه الكريم، وجدنا الصراع في بيت نبي الله يعقوب كان يغذّيه عدة عوامل، وأهمها الصراع بين الزوجات الضرائر، علما بأن نبي الله يعقوب قد جمع في عصمته أربع نسوة، ولاشك أن ذلك الصراع بين تلك الزوجات سينعكس الأبناء، وهناك مسوغ ومبرر يحمل سيدنا يعقوب أن يحدث ميلا وتعاطفا ليوسف وأخيه، على حساب إخوته العشرة الآخرين، لا شك أن نبي الله يعقوب قد شعر ولاحظ بأن هناك تكتلا وتجاذبا لا شعوريا بين أبنائه، سرعان ما ينقلب من وقت لآخر إلى صراع محتدم من جهة الإخوة العشرة، أمام يوسف وأخيه، وكان يتعين عليه كأب، إحداث نوعا من التوازن بين جميع أبنائه، وهو ما يحمله على التعاطف، وإظهار شيء من الميل والشفقة على يوسف وأخيه، على حساب بقية الأبناء، بدافع كونهم أقلية أمام أكثرية، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك، أثر النبوغ والجمال الفائق الذي كان يتحلى به يوسف دون بقية إخوته، ثم جاءت الرؤيا التي رآها يوسف لتضيف ميلا آخر إليه وأخيه بنيامين، على حساب الإخوة العشرة الباقين، خاصة إذا كانت تلك الرؤيا تحمل دلالات النبوة في المستقبل، لا شك أن جميع هذه العوامل، كانت مساعدة ليفعل الشيطان فعلته لتفجير هذه الأسرة الطيبة، فوقع ما وقع مما هو معروف من قصة يوسف مع إخوته.

وخلاصة القصة تعود إلى تاريخ نبي الله إبراهيم وابنه إسحاق والد نبي الله يعقوب، يقولد. فتحي زغروت: "لقد وُلد لنبي الله إسحاق "عيسو" "ويعقوب"، وشاء الله عز وجل أن تكون النبوة في نسل يعقوب دون أخيه "عيسو"، وهاجر يعقوب إلى أرض أخواله "أهل سارة" "بابل"، ومكث فيها مدة عشرين سنة، وتزوج من أحد أخواله بنتيه "ليا" و"راحيل"، وأهدته كلٌ واحدة منهما بزوجة، أهدته ليا "زلفة"، وراحيل بلهة"، فولدت "ليا" ستة أولاد

وهم كلٌّ من: "شمعون، ولاوي، ويهوذا، وروبين، ويساكر، وزبلون"، أما راحيل فولدت يوسف، وبن يامين.

وأما زلفة فقد ولدت كُلًّا من: "جاد وآشير" وولدت بلهة كُلًّا من:"دان، ونفتالي"[24].

نستخلص من ذلك أن يكون لدينا فريقان، فريق يتكون من ثمانية أشخاص، والآخر من أربعة، ومن ضمن هؤلاء الأربعة شخصان، اتجهت إليهما أصابع الحقد والحسد، ووقعت عليهما العداوة، وهما كلٌّ من يوسف وأخيه بن يامين، وكان من المفروض أن ينضم إليهما كلٌّ من "دان" و"نفتالي"، باعتبارهما أبناء "بلهة"، والتي هي جارية "راحيل"، أم كلٌّ من يوسف وبن يامين، إلّا أن وجودهما منفردين لا يشكل أي مصدر قوة، أمام المعارضة المتكونة من ثمانية أشخاص، لذلك يتعين عليهما إمّا أن يبقيا على الحياد، أو ينضمَّا إلى الكتلة الكبرى، وهذا هو السر الأعظم في معادلة وفلسفة الصراع في بيت نبي الله يعقوب، وفي العالم أجمع، والله وحده أعلم وأحكم.

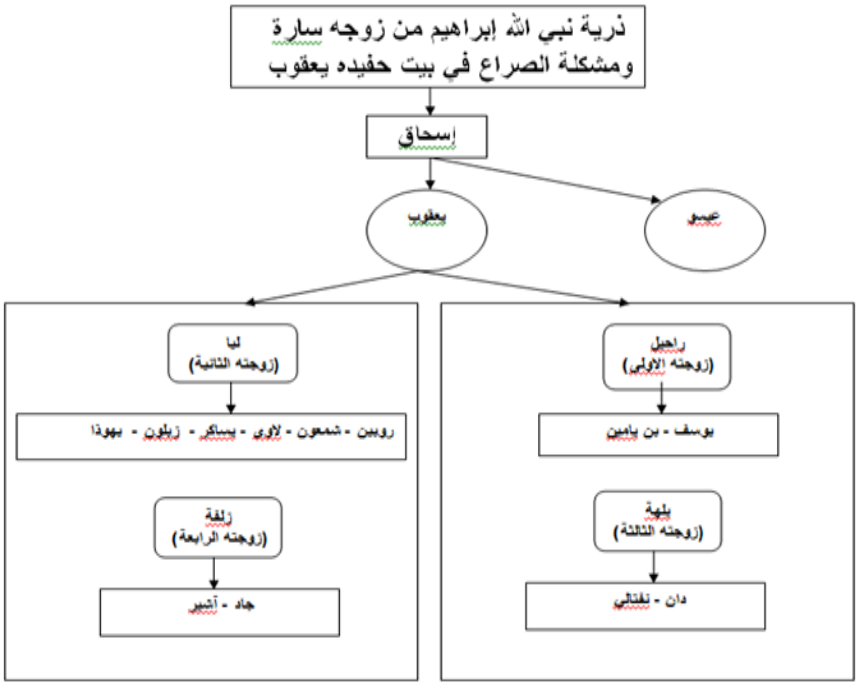

3 – الأقلية الإصلاحية ودورها الريادي في المجتمع:

بعد دراستنا لقانون التغيير الذي تفضل به الدكتور "طارق سويدان" يستخلص الإنسان أنّ العملية الإصلاحية في المجتمع متوقفة على النخبة من علماء الأمة، الذين استناروا بالرؤية القرآنية والهدي النبوي الشريف، إنّ الشيء الذي يهمني في هذه الدراسة هو استخلاص الأسرار الإلهية من كتاب الله عز وجل، ضمن مفهومي قانون القلة والكثرة، وهو ما يعزز المقولة السالفة الذكر، أنّ أي مجتمع من المجتمعات تقوده الأقليات وتتجاذبه نحو الصلاح أو الفساد، والداعي إلى الله عز وجل بيقين وإخلاص، لا تثبطه عزيمة القلة والكثرة، في جعل من نفسه وريثا للسير في طريق النبوة، مصداقا لقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾، وقوله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا درهما ولادينارا، وإنما ورثوا علما، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر"، والمعيار الوحيد ا لذي يستمسك به هو معيار الحق، مصداقا لقوله عز وجل في سورة الزخرف: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾، ومصداقا لقوله تعالى أيضا في سورة المجادلة: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾. كان المجتمع الفرعوني خاضعا لثلة من الأقلية الفاسدة المسيطرة، وتتكون تلك الأقلية من ثلاثية جاثمة على هرم السلطة، يترأسها فرعون وتحت إمرته كلٌّ من هامان وقارون، ويبقى الجنود والسحرة عبارة عن أدوات تخدير بقية المجتمع والذي هو قوم فرعون، ويشاء الله عز وجل أن يرسل إليهم ثلاثيا إصلاحيا، على رأسهم نبي الله موسى، ثم تسلم زوجة فرعون على يديه، إضافة إلى رجل من أهل البلاط، ويسميه القرآن بمؤمن آل فرعون، ويشاء الله عز وجل أن ينتصر الثلاثي الإصلاحي على الثلاثي الإفسادي، بعد معارك طويلة.

لقد بدأ الرسول ﷺ حملة التغيير في الإصلاح وحده، ثم شدّ الله أزره بزوجه خديجة، وكان أول من أنار له الطريق ووضعه في السكة "ورقة بن نوفل"، وهو شيخ ربما تجاوز الثمانين من عمره، ثم لحق به من الرجال أبو بكر، ومن الصبيان علي بن أبي طالب، وهكذا بدأت حركة الدعوة في التوسع، وكانت في أول أمرها سِرِيَّة، ثم توسعت لتشمل

عشيرتها لأقربين، ثم توسعت لتشمل عرب قريش، وكانت الأقلية المستضعفة التي آثرت نصرة الحق من المجتمع المكي تعاني صنوف التعذيب والاضطهاد، وبانتقال الدعوة الإسلامية إلى المدينة المنورة أصبحت جماعة الأقلية هي جماعة المنافقين، وممن انضم معهم من اليهود، وكان زعيم المنافقين شخص واحد، هو "عبد الله بن أبي بن سلول" الخزرجي وهكذا... ويبقى الصراع محتد ما بين الحق والباطل إلى أن تقوم الساعة، مُتعاوِرًا بين الأقلية المؤمنة بالله عز وجل وبسنة التغيير، وبين الأكثرية الغافلة أو الضالة، والتي بدورها تقودها أقلية مُضلِّلة من المستكبرين، حتى يأتي أمر الله، فيقي ضل هذه الأمة أقلية مخلصة تأخذ بيدها إلى طريق الحق وفق السنن الإلهية للتغيير في هذا الكون.

4– الأقلية المتذبذبة وعلاقتها بالمجتمع:

سبق أن رأينا أن أي مجتمع من المجتمعات، مهما كان نوعه فهو ينقسم إلى أقلية وأكثرية، والمجتمع بمجموعه ينقسم إلى ثلاث طبقات، طبقة الصفوة التي تتم تعبا لنفوذ السلطة، وهي الأقلية المسيطرة، وهي بدورها تنقسم إلى قسمين، قسم يريد الإصلاح وآخر يريد الفساد، ويبقى الفريق الثالث يتمثل في الطبقة العامة من المجتمع والذي بدوره ينصاع إما للأقلية الإفسادية، أو الإصلاحية، وقوة التأثير تكون على هذا المستوى بالذات، ممثلة سنة الصراع بين الحق والباطل.

هناك نقطة مهمة أثارت انتباهي وأنا أكتب هذه السطور، وهي: أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل ضمن تلك الجماعتين، سواء تلك الفاسدة التي تريد الفساد والخراب، أو التي تريد الإصلاح والبناء، جعل الله بينهما جماعة متذبذبة غير مستقرة، رأينا نموذجا منها بين أبناء نبي الله يعقوب وهي الفئة الواقفة على الحياد أو المنضمة للفريق الأقوى، وقد تكون هناك فئة أخرى غير تلك المتفرجة الواقفة على الحياد، فئة غير قابلة لذلك الفساد على إطلاقه، إلّا أنها تنقاد لتلك الجماعة، إما تملقا أو ضعفا بسبب المصالح، ووجودها ضمن تلك المجموعة يخلق نوعا من التوازن في محاولة التقليل من ذلك الفساد، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المجموعة الثانية، مجموعة الصلاح والإصلاح، فهي بدورها تخلق جوا من الاضطراب والتثبيط، بحكم خلل في العقيدة ونقص الثّقة في الله عزّ وجلّ، والخوف من العواقب، وهو

نوع من الابتلاء للمؤمنين الصادقين، ولنا في القرءان العظيم والّسنة النّبويّة وسيرة الرّسول ﷺ الكثير من الأمثلة.

إنّ الله عزّ وجلّ تحدّث عن المنافقين وإثارتهم للفتن بين المؤمنين الصّادقين، ثم قال الله عزّ وجلّ عقب ذلك، وهو يخاطبهم: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾[25]، وهو ما وضحه الله عزّ وجلّ أيضا في سورة الأنفال، حين كشف سريرة بعضٍ من صحابة بدر، لم يكونوا راغبين ولا مستعدين نفسيًّا ولا ماديًّا للدّخول في معركة يرونها غير متكافئة، ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلاً، مقابل ألفا إلاّ خمسين مقاتلا من كفّار قريش، رغم أنّ الرّسول ﷺ وعدهم بالنّصر، لأنّ هدفهم الأوّل هو الخروج والتّعرّض للقافلة ليس الحرب والقتال، ثم أنزل الله عزّ وجلّ فيهم قوله في سورة الأنفال: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾[26].

إذا عدنا إلى قصة يوسف وإخوته، نلاحظ أنّ هناك جماعة بين الإخوة لأب، تمثل قمّة التّطرّف في الحقد على يوسف وأخيه، وهي الجماعة التي صرح بها كتاب الله عزّ وجلّ، حين قالوا: ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا ﴾(يوسف:9).

ثم وضح لنا الله عزّ وجلّ أنّ هناك شخصاً واحداً كان له قوّة التّأثير ضمن المجموعة الكبرى، اعترض على عمليّة القتل، واقترح التّخلّص منه عن طريق النفي والإبعاد برميه في البئر، حتى تأخذه بعض القوافل السيّارة إلى مكان بعيد، وفي ذلك يقول الله عزّو جلّ: ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾، فالإنسان يلاحظ أنّ هذا الواحد استطاع أن يكون حكمه هو النّافذ، ووجوده ضمن المجموعة الفاسدة، يمثّل نوعاً من التّوازن والاعتدال في اتخاذ القرار وتنفيذ الحكم، وهو أشبه بمؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه في قصر فرعون، وهو يمثّل نوعاً من التوازن والاعتدال في الاحتجاج على موسى من جهة، وإقامة الحجّة على فرعون وملئه من جهةٍ ثانيةٍ، وكذلك الأمر بالنّسبة إلى قصّة أصحاب الجنّة الت يذكرها الله عزّ وجلّ في سورة القلم[27].

حيث كان فيهم واحد غير راض بما هم مقدمون عليه إخوته، ولكنه انساق مع المجموعة الفاسدة في وقت كان ينهاهم عن ذلك التّصرّف، وعبر عنه الله عزّ وجلّ بـ"الأوسط"، قال عنه المفسّرون بأنّه أعقلهم وأحكمهم رأياً، وقد ذكره الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾، ومن خصائص أمّة نبيّنا محمّد ﷺ أنّها لا تتّفق على ضلال، إذا حاول بعض المجرمين اقتراف جريمة ما، إلاّ وكان من بينهم من لا يرضى بها على إطلاقها، ولكنه ينساق مع المجموعة، ومن الأحاديث التي رواها غير واحد من الصّحابة، قوله ﷺ: "لا تتفق أمّتي على ضلالة[28]".

5 –وقفة تفكير وتأمّل في الأقلّيّة النّافذة وانعكاسها على المجتمع القرشي في مرحلة النّبوّة:

سبق أن رأينا أنّ الفترة الزّمنيّة التي صاحبت نزول الوحي، هي مرحلة حاسمة وحاكمة على الإنسانيّة قاطبةً، رغم قصر مدّتها، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ إلى الوفاة، وما بعدها إلى صفّين، سواء من ناحية توغّلها في التّاريخ الإنسانيّ البعيد، قبل خلق أب البشريّة آدم، أو من ناحية ما يستقبل هذا العالم من أحداثٍ، إلى قيام السّاعة وما بعد قيامها، وذلك لشيءٍ واحدٍ، هو فترة نزول القرآن العظيم وتدوين تلك الأحداث، ثمّ ما أعقبها من نور قرآنيّ إلى "صفين"، والتي هي مرحلة الرّوح كما يسمّيها الأستاذ مالك بن نبي، ثم ما تلى "صفين" بعد ذلك من أحداثٍ إلى يومنا هذا، وما بعده إلى أن تقوم السّاعة، وهو ما نقصده بـ "عالميّة القرءان الكريم". وهذا يحملنا على النّظر في جميع الأحداث التي وقعت في تلك الفترة الزّمنيّة القصيرة بمنظارٍ مجهريٍّ دقيق، بهدف استخراج الحقائق واستخلاص العبر، إنّ أيّ جزئيّة من تلك الجزئيّات مهما بلغت دقّتها، أو حادثة من الحوادث وقعت في تلك الفترة، فنزل الوحي بصددها، ينبغي تسليط الضّوء عليها وإخراجها للعيان، لانطوائها على كثيرٍ من الحكم والأسرار، وهو التّدبّر الذي أمرنا به الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم.

ضمن دراسة موضوع الأقليّات النّافذة في المجتمع القرشي، يلاحظ الإنسان في فترة الرّسالة السّماويّة، أنّ هناك تقابلاً في موضوع الأقلّيّات النّافذة بين الطّرفين، الطّرف الإيجابيّ والطّرف السذلبيّ، وهو نفس ما رأيناه في فترة رسالة نبيّ الله موسى عليه السّلام، في قصر فرعون، ثلاثيّ فاسدٌ أدخل الله عليه ثلاثيًّا صالحاً مصلحاً، ثم انتصر الإصلاح على الفساد آخر المطاف، وفق السّنّة الإلهيّة في الكون، ومصداقاً لقوله عزّ وجلّ في سورة نبيّ الله "يوسف"، حين قال تعقيباً على القصّة: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وإذا سلّطنا الضّوء على الطّرف القرشي الفاسد، وجدنا أنّ هناك تفاوتاً في التّضليل والإجرام، كما يوجد تفاوت في الإصلاح والإرشاد بالنّسبة إلى الطّرف الإيجابيّ، لمجتمع الرّسول ﷺ، وهو نوعٌ من التّوازن الذي سبق أن رأيناه، وبين أيدينا نموذج من النماذج التي لها الأثر الكبير في تضليل المجتمع، ولها علاقة كبيرة في التأثير على التفكير الجمعي في المجتمع القريشي، وفي الوقت نفسه يوضح خطورة انحراف النموذج الفاسد وأثره في هلاك المجتمع وخراب الأمة.

6 – نموذج من نماذج التّضليل وأثره على التّفكير الجمعي في المجتمع القرشي:

ما يهمّني في هذه الدّراسة، هو تسليط الضّوء على المجتمع القرشي في تلك الفترة القصيرة، حيث كانت هناك شخصيّة كثيرًا ما أثارت انتباهي حتى تمنّيت دخولها في الإسلام، لأنّي أراها لا تستحقّ الموت على الكفر والضّلال، ولكنّها كانت ضحيّة تأثير عاملين أساسيّين، لهما أشدّ الأثر في الانحراف والتّضليل وهما كما يلي:

العامل الأوّل: يتعلّق بما يُسمى بـ"الفكر الجمعي"، المتعلق بالمجتمع القرشي وما ورثه من أفكار ومفاهيم، كان لها الأثر القويّ في تمادي الإنسان في الزّيغ والضّلال، إلى درجة لا يمكن الخروج عن ذلك الطّوق الاجتماعيّ الصّلب، الذي أعلن الحرب والعداء على الرّسول ﷺ من أول يومٍ نادى فيه بالإصلاح.

العامل الثّاني: يتعلّق بالأقلّيّة النّافذة التي لها كبير الأثر في تضليل القوم، وهي مُمثّلةٌ في شخصيّة "عمرو بن هشام"، المكنَّى بأبي جهل، والذي سمّاه الرّسول ﷺ بـ"فرعون هذه الأمّة"[29]، وقد ذهب ضحيّة تلك الشّخصيّة مجتمع بأكمله، ومن جملة من ذهب ضحيّة ذلك التّضليل "عتبة بن أبي ربيعة"، زعيم قبيلة بني عبد شمس، وأبو جهل قرين السّوء، بالنّسبة إليه، حيث كانت لهذه الشّخصيّة مواقف تشهد له بنصرة الحقّ، وسأتعرّض لموقفين وقفهما عتبة بن أبي ربيعة، أراهما جديرين بالدّراسة في هذا المقال، موقف كان في فجر الدّعوة النّبويّة وبدايتها، وموقف آخر في يوم بدر، وهو آخر يوم من حياة هذا الرّجل.

الموقف الأوّل: يتعلّق بما رواه ابن إسحاق في السّيرة، إضافةً لما رواه الإمام البغوي في تفسيره عن جابر بن عبد الله، أنّ قريشًا اجتمعت للنّظر في من يكلّم الرّسول ﷺ فقالوا انظروا أعلمكم بالشّعر والسّحر والكهانة، فليأت هذا الرّجل الذي فرّق جمعنا وشتّت أمرنا وعاب ديننا فليكلّمه، فقالوا ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فأتاه فقال له: يا محمّد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت الرّسول ﷺ، فقال أنت خير أم عبد المطّلِب؟؟ فسكت الرّسول ﷺ، فقال عتبة: إن كنتَ تزعم أنّ هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عِبت، وإن كنت تزعم أنّك خير منهم، فتَكلَّمْ حتى يسمعَ قومُك منك، فرَّقتَ جماعتنا وشتّت أمرنا وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب... ثم عرض عليه عتبة أربع مقترحات فقال: أيّها الرّجل إن كان إنّما بك الحاجة، جمعنا لك المال حتى تكون أغنى رجلاً في قريش، وإن كان إنّما بك الباءة، أي الزّواج، فاختر أيّ نساء قريشٍ شئت فلنزوّجك عشراً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد مُلكاً ملّكْناك علينا"، فقال الرّسول ﷺ أَفَرَغْتَ يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال فاسمع منّي، فقال: أسمع، ثمّ قرأ عليه فواتح سورة فصّلت[30]، وكان عتبة يستمع ويُنصِت إلى كلام الله عزّ وجلّ من فم الرّسول ﷺ بتدبّرٍ وإمعانٍ، ولما وصل الرّسول ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[31] لم يملك عتبة نفسه أن وضع يده على فم رسول الله، نظرًا للتّهديد الذي أنذر به الله عزّ وجلّ قريشاً، فقال للرّسول ﷺ "أناشِدُك بالرّحِم أن تكفّ". ورجع عتبة إلى أهله، ولم يخرج إلى قريشٍ واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، "والله ما نرى عتبة إلاّ

قد صبأ إلى محمّد[32]، فانطلقوا بنا إليه، فقال أبو جهل: يا عتبة ما حبسك عنّا إلاّ أنّك صبأت إلى محّمد، فغضب عتبة فقال: لقد أتيته فأجابني بشيء، والله ما هو بشعرٍ ولا كهانةٍ ولا سحرٍ، وقرأ عليَّ السّورة حتى وصل إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾، فأمسكت بفيه وناشدته بالرَّحِم أن يَكُفَّ، وقد علمتم أنّ محمّداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل عليكم العذاب"[33]. وفي روايةٍ لابن هشام: قال عتبة: "يا معشر قريشٍ أطيعوني واجعلوها لي، خلوّا بين الرّجُلِ وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فمُلكُه مُلككم وعزُّه عزّكم، وكنتم أسعد النّاس به، قالوا سَحَرَكَ والله أبا الوليد محمدٌ بلسانه، قال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[34].

الموقف الثاني: كان يوم بدر، وهو آخر يوم في حياة عتبة بن أبي ربيعة، تقول الرّواية: "لما نزلت قريشٌ في بدر، بعثت عُمير بن وهب فقالوا له: أُحزُر لنا أصحاب محمّد، فاستجال بفرسه حول العسكر، ثمّ رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل ينقصون قليلاً أو يزيدون، ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كميناَ أو مدداً، ثمّ ضرب في الوادي حتى أبعَد فلم يرَ شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني يا معشر قريشٍ قد رأيت البلايا تحمل المنايا، نواض حيث ربت حمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم، حتى يَقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيَكم. فلمّا سمع حكيم بن حزام ذلك، مشى في النّاس حتى أتى عتبة بن ربيعة، فقال يا أبا الوليد، إنّك كبير قريشٍ وسَيِّدُها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدّهر؟ قالو ماذاك يا حكيم؟؟ قال ترجع بالنّاس، فقال عتبة: فأْتِ ابن الحنظليّة[35]، ثمّ قام عتبة في النّاس خطيبًا، فقال يا معشر قريشٍ: "إنّك موال لهما تصنعون بأن تقتلوا محمّدا وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه، لا يزال الرّجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمّه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمّد وبين سائرِ العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك، ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون." قال حكيم، فانطلقتُ حتى جئت أبا جهل فقلت يا أبا الحكم:

إنّ عتبة قد أرسلني بكذا وكذا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سَحْرُه[36] حين رأى محمّداً وأصحابَه، فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إني لأرى قوما يضربونكم ضربا، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجوههم السيوف، ثم دعا أخاه وابنه فخرج يمشي بينهما ودعا المبارزة"[37]. وكان ذلك اليوم، يوم حتفه وحتف ابنه الوليد وأخيه شيبة، وكان الرسول ﷺ قد توجّس خيرا في عتبة بن أبي ربيعة، وذلك حين رآه على جمله الأحمر، فقال في رواية أخرى: "إن يكن في أحدٍ من القوم خير، فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا[38]".

إنّ كتاب الله عز وجل قد تعرّض في كثير من الآيات القرآنية التي تعّبر عن مثل هذه النماذج من الأقلّيّات النّافذة المضلِّلَة لأقوامها، والمولى عزّ وجلّ قد عرض ذلك الحوار بين المستكبرين والّضعفاء، عبر مشاهد أليمةٍ يوم القيامة، ومن جملة تلك المشاهد قوله تعالى يوم العرض في المحشر: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾(سبأ: 31-33).

خلاصة البحث:

لقد كان الهدف والمنطلق الأوّل لهذه الدّراسة هو التّعرض إلى أعظم مشكلة يعانيها العالم بصفةٍ عامّة، والعالم الإسلامي بصفةٍ خاصّة، وهي مشكلة الصِّراع الطّائفيّ والمذهبيّ والاثنيّ، ثم رأيت الوسيلة الوحيدة لعلاج هذه المشكلة والتّصدّي لها هو توظيف كتاب الله عزّ وجلّ، باعتباره أعظم وثيقةٍ علميّةٍ على وجه الأرض، يستطيع الباحث أن يجد فيها ضالّته، وقد تكرّم الله عزّ وجلّ بها علينا بالحفظ، دون أن تنالها يد الإنسان بالتّحريف، والنّقطة الأساسيّة التي تستند عليها هذه الدّراسة هي عالميّة القرآن العظيم، وتعرّضها لحلول جميع المشكلات التي تقع في هذا العالم، منها مشكلة الأقلّيّات ومسألة الصّراع، ومن خصائص العالميّة القرآنيّة أيضا، كون هذا الكتاب المقدّس غير خاضع للزّمان والمكان، فالوحي الذي كان ينزل على الصّحابة في الجزيرة العربيّة قبل أربعة عشر قرناً هو نفسه ينزل علينا الآن، وذلك يخضع لتوظيف آليات ومناهج البحث العلميّ التي يتفّق عليها جميع النّاس، وبعد الغوص في أعماق موضوع فلسفة الأقلّيّات في القرآن العظيم، وجد الإنسان نفسه أمام صراع يتجاذبه نوعان من الأقلّيّات، أقلّية إصلاحيّة تريد الخير والصّلاح للبشريّة، وأخرى فاسدة تريد لها الشّر والفساد، والغريب في الأمر أنّ يجد الإنسان أنّ فلسفة الأقلّيّات تقوم على سِرٍّ من أسرار هذا الكون العجيب، فهي تشكِّل نوعاً من التّوازن الذي يشمل العالم برمَّته، لولا تلك الأقلّيّات لانعدمت سنّة التّدافع التي تُمثِّل إحدى السّنَن الكونيّة التي تُسيِّر هذا العالم الفسيح، والغريب أيضاً أن يجد الباحث أنّ أصل الصّراع قد وُجد في العالم العلويّ قبل خلقِ الكون، كان أوّل أمره مبنيًّا على التّنافس بين إبليس والملائكة، وهو في الظّاهر تنافسٌ شريفٌ، ولكن لما خضع هذا الّتنافس لدى إبليس للتّمحيص والابتلاء سقط في الامتحان، حين استكبر على الله عزّ وجلّ بإعراضه عن تنفيذ أوامره عزّ وجلّ، بدافع كلٍّ من الكبر والحسد، ثم تطوّر ذلك الحسد إلى عداءٍ وصراعٍ بينه وبين آدم وذرّيّته، إلى يوم القيامة، وتوصّلت هذه الدّراسة أيضا إلى خلاصة هامّة، تتمثَّل في أنّ مصدر الصّراع في هذا العالم كلّه يعود إلى الكلمة الخبيثة التي تلفَّظ بها إبليس حين استكبر على الله عزّ وجلّ، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

وعند التّحليل العميق لـ"الأنا" عند الإنسان يكتشف الباحث أنّ الموضوع يتعلّق بأسرارٍ تتعلّق بعلم النّفسِ الفرديّ والاجتماعيّ، والنّظريّات العلميّة المتعلّقة بالعلوم التّاريخيّة، وأهمُّها ماجاء في كتاب الله المتعلِّق بقانون السّير في الأرض، والاتعاظ بالأمم السابقة، إضافة إلى التفكُّر والنّظر كيف بدأ المولى عزّ وجلّ الخلق في هذا الكون، وعلاقته بفلسفة الصِّراع في الأرض، وبالعودة أيضاً إلى التّحليل النّفسيّ للإنسان انطلاقاً من الكلمة الخبيثة "أنا خيرٌ منه"، يصل الباحث إلى أنّ "الأنا" عند الإنسان يتفرّع إلى "الأنا" الماديّ والمعنويّ، وبناءً على هذين الفرعين تدور فلسفة الصّراع في العالم، قديماً وحديثاً ومستقبلاً، و"الأنا" بدوره ينقسم إلى "الأنا" الفرديّ والجمعيّ، ويحتل مكاناً في الماضي والحاضر والمستقبل أيضاً، وعند تحليل النّوعين من الأقلّيّات الإصلاحيّة والإفساديّة، وجد الباحث نفسه أمام الكتلة الكبرى من المجتمع، وهي تابعة ومُنصاعة إلى هاتين الأقلّيتين، وفلسفة الصّراع مبنيّة على ذلك التّجاذب بين الطّرفين، والصّراع هو في أصله أبديّ بين الحقّ والباطل، ومشعل التّضليل للأمّة تحمله الأقلّيّة الإفساديّة، في حين تحمل الأقلّيّة الإصلاحيّة مشعل الهداية، والمسؤوليّة التّاريخيّة للإنسان تعود إليه ذاته، ويتحمّلِها بمفرده، في أيّ بقعة وجوده من بقاع الأرض، أو زمان من أزمنته، سواءً كان هذا الإنسان ينتمي إلى جملة الأقلّيّة الإصلاحيّة أو الإفساديّة، أو ينتمي إلى المجموعة الكبرى التّابع للكتلة الإصلاحيّة أو الإفساديّة.

الهوامش:

---

[1] د. طه جابر العلواني، أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، سلسلة دراسات قرآنية رقم1، مكتبة الشروق الدولية، ط.1، 2006، ص. 29.

[2] إنّ أبعد نجم في مجرّتنا يقع على بعد 63 ألف سنة ضوئية، وأن مساحة مجرتنا تبلغ: 109.645.852.384.000.000.000.000.000.000.000.000 كلم^2 وهو ما يساوي 109 مليار و645 مليون و859 ألف و384 تريليون تريليون كلم2، ويوجد في مجرتنا فقط أكثر من مئة مليون نجم إن أبعد نقطة في الكون يمكن للعلماء مراقبتها عبر أضخم نليسكوب تقع على بعد 16300 مليون سنة ضوئية أي 154.211.040.000.000.000.000.000 ميل أي 154 ألف مليون و 211 مليون و 40 ألف تريليون ميل.

والسنة الضوئية هي مقدار المسافة التي يقطعها الضوء في سنة وتساوي 9.460.800.000.000 كلم أي 9 تريليون و460 مليار و800 كلم. شبكة النّبأ المعلوماتية 25 مارس 2008 بقلم عبد الدائم الكحيل: www.kahell7.com

[3] ﴿هُوَ اللَّهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُومِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الاَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)﴾(سورة الحشر).

[4] د. طه جابر العلواني، المصدر السابق نفسه.

[5] إن الله عز وجل قد اختزل العالم بماضيه وحاضره ومستقبله في كتابه الكريم، ثم اختصر القرآن كله في سورة الفاتحة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدَ . اتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر/87) ذهب معظم المفسرين إلى: أن "السبع المثاني" هي سورة الفاتحة، باعتبارها تتضمن سبع آيات، إضافة إلى ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيء ﷺ قال في شأن سورة الفاتحة: "هي أم القرآن، وهي السّبع المثاني، وهي القرآن العظيم، سبق أن طرحت هذا الموضوع ضمن كتاب: "العلاقة بين سورة الفاتحة وما يقع من أحداث في العالم العربي والإسلامي في الظرف الراهن"، ضمن سلسلة الوعي الحضاري في الفكر الإسلامي، رقم (02). دار قرطبة للنشر والتوزيع سنة 2017

[6] هناك ملاحظة استوقفتني مؤخرا، وهي تتعلق بهذه الآية الكريمة، إن الله عز وجل قد أنزل هذه الآيات على عرب قريش، وهم كفار ذلك الزمان، ولكن، هل المولى عز وجل يقصد بها كفار قريش أم كفار هذا الزمان؟ في وقت تم اكتشاف النظرية العلمية التي تقول بأن السماوات وما تتضمن من كواكب عبارة عن كتلة واحدة، ثم تفتقت وتوزعت فيما بعد عبر الانفجار العظيم.

إنّ الإشكال وارد في كون الكفار الذين اكتشفوا هذه النظرية العملية هم كفار هذا الزمان، ليسوا كفار قريش، وكذلك الأمر بالنسبة إلى قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حيٍّ﴾، وهو ما يثبته أيضا علماء الأحياء المعاصرين في الغرب، هذه هي الملاحظة التي استرعت انتباهي، المتمثلة في مصطلح "**الكفر**"، هل هو مُنصبٌّ على كفار عرب قريش، أم كفار هذا الزمان؟؟ فهو بالضرورة ينصرف إلى كفار هذا الزمان، والعجيب في الأمر أن ترد الآية على شكل استفسار استفزازي يثير التساؤل للمجتمع الغربي الكافر، حين قال: "**أَوَلَمْ يَرَ الذِينَ كَفَرُواْ؟؟**"، **جاء** على سبيل الاستفهام، وكان يتعين على علماء الغرب أن يطرحوا السؤال على أنفسهم: كيف ذكر الله عز وجل ذلك قبل أربعة عشر قرنا؟ وبالتالي يحملهم هذا التساؤل على البحث وإيجاد العلاقة بين القرآن وبين الله جل جلاله.

[7] نظرية مسح الزمان والمكان بالنسبة إلى التشريع الإسلامي، تتعلق بقدرة استجابته للخصائص السيكولوجية والعقلية لجنس الإنسان كإنسان، سواء كان ذكرا أو أنثى، ومن ثمّ استطاع التشريع الإسلامي أن يغطي خريطة الزمان والمكان، وهو يختلف تماما عن التشريع الغربي أو الوضعي، من حيث المفهوم والمنطلق، ومن حيث التطبيق واستجابته للواقع، وهو ما سبق أن طرحته ضمن المطبوعة الجامعية لقسم الماجستير سنة 2006. 2007 بعنوان: منهجية البحث العلمي وفلسفة القانون في التشريع الإسلامي والغربي، يمكن إعادة طبعها مستقبلا وإخراجها ضمن كتاب خاص.

[8] موضوع المقاصد الكبرى لخلق هذا الوجود من المواضيع الهامة التي فتح الله بها علي في رسالة الدكتوراه، وهي تتعلق بمقاصد وجود الإنسان على هذه الأرض، وهي خمسة مقاصد كبرى، أولها "توحيد الألوهية"، وما يتفرع عنه من وحدة الأمة واجتناب الصراع، وهو أعظم مقصد على الإطلاق، والمقصد الثاني هو مقصد الاستخلاف وعمارة الكون، والثالث هو الابتلاء، والرابع هو العبادة، والخامس هو إقامة الشهادة لله رب العالمين، وجميع هذه المقاصد جاءت في كتاب الله بلفظ صريح، وهو ما توسعت فيه ضمن رسالة الدكتوراه كما ذكرت.

[9] لا يمكن أن نفهم من ذلك عدم اتخاذ الأسباب، يقول العلماء: "عدم اتخاذ الأسباب جهل بقوانين الله، والتوكل على الأسباب وحدها كفر بالله". قال عز وجل:﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال/60)

[10] قال الأستاذ أحمد إبراهيم أبو شوك: وهذه القوانين التي يشير إليها زكريا بشير إمام يفصلها ابن خلدون في قانونين:**القانون الأول**: قانون السببية أو العليّة: وهو أحد قوانين الحتمية التاريخية عند ابن خلدون، **والقانون الثاني**: قانون التشابه: يؤمن ابن خلدون أن هناك قانون تشابه يسهم سلباً وإيجاباً في صياغة أحداث التاريخ البشري. د. أحمد إبراهيم أبو شوك، "علم التاريخ إشكالات المنهجيّة ومشروعات الأسلمة"، مقال في مجلّة إسلامية المعرفة، بحوث ودراسات علم التّاريخ، اغسطس 2000. ع. 24

[11] دون الخوض في خصائص النفس البشرية وأنواعها المذكورة في كتاب الله عز وجل، من نفس أمارة، ونفس لوامة، ونفس مطمئنة.

[12] ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيَ ادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنَ اَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الاَخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(27) لَئِن بَسَطْتَّ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(28) إِنِّيَ أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ اَصْحَابِ النَّارِ وَذَالِكَ جَزَآؤُاْ الظَّالِمِينَ(29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنَ اَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ(31)﴾ (سورة المائدة).

[13] موضوع المنهج التاريخي في القرآن العظيم، هو ما عالجناه بإسهاب فيكتاب: "منهجية التفكير والبحث العلمي في الفكر الإسلامي والغربي"، وإشكاليّة الصّراع في الفكر الدّيني، معالجة صريحة ومقاربة للموضوع، ضمن فلسفة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ضمن مشروع سلسلة الوعي الحضاري والتجديد في الفكر الإسلامي رقم (1) والكتاب تحت الطبع، وسيرى النور قريبا إن شاء الله، دار قرطبة للنشر والتوزيع.

[14] الأستاذ جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع، الطبعة الأولى في الجزائر، المطبعة العربية غرداية، سنة 1990 صفحة 149

[15] الأستاذ جودت سعيد، نفس المصدر.

[16] وإذا حللنا مصطلح الغيبة مثلا، التي هي من الأفعال المنهي عنها شرعا، وعرفها الفقهاء: بـ"أن تتحدث أو تذكر أخاك المسلم بما يكره وهو غائب" لا شك أن مضمون النهي ينصب على محاربة الأنانية ابتداء، لأن مضمون الغيبة ينطوي على إثبات الذات وإعلاء شأنها من جهة، وإهدار كرامة وانتقاص الآخرين من جهة ثانية، والذي هو عين الأنانية. وحتى مصطلح "الحب" الذي هو حديث المتآلفين والمتجانسين في هذه الحياة، هو غير بريء من الأنانية وحب الذات!! عندما يختلى شاب بفتاة وقد أخذت منه لبه وعقله بفتنتها وجمالها، ثم بعد ذلك يغدق عليها ذلك الشاب كل كلمات العشق والحب والتقدير، فلو تساءلنا مع أنفسنا هل حقيقةً يحبها هي، أم يحب نفسه وذاته.؟؟ لا شك أن جميع تلك المشاعر تعبر عن حبه لذاته وأنانيته، فهو يحب نفسه ويريد أن يستحوذ على ذلك الجمال ويستأثر به دون غيره وهكذا!!

[17] الأستاذ الشيخ سعيد محمد بن ابراهيم كعباش، نفحات الرحمن في رياض القرآن، الجزء الرابع عشر، نشر جمعية النهضة، العطف غرداية الجزائر، المطبعة العربية، سنة 2015 صفحة 406 – 410.

[18] يقول الدكتور محمد متولي الشعراوي في تفسير الآية من سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذَ اَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(12)﴾"وإن تساءل أحد: لماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة؟ نقول: هب أن فردا مختارا من الإنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريده الله، فأطاع الله كما يجب ولم يعص ... أليست منزلته مثل المَلَك بل أكثر من

المَلَك، لأنه يملك الاختيار، لذلك كانوا يسمون إبليس طاووس الملائكة، أي الذي يزهو في محضر الملائكة، لأنه ألزم نفسه بمنهج الله، فصار لا يعصي الله ما أمره ويفعل ما يؤمر، فأخذ منزلة متميزة من بين الملائكة، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة، فلما جاء البلاغ الأول عن آدم في أثناء حضوره وقال ربنا للملائكة "اسجدوا لآدم" وكان الأولى به أن يسارع بالامتثال للأمر بالطاعة، لكنه استنكف. وهب أنه دون الملائكة وما دام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة، ألم يكن من الأجدر به وهو الأدنى أن يلتزم بالأمر؟ لكنه لم يفعل. ولأنه من الجن فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار. ويقول الحق بعد ذلك: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(12)**﴾(الأعراف). تفسير الشعراوي، المجلد السابع، طبعة دار التقوى القاهرة، أشرف على طباعته قطاع الثقافة "أخبار اليوم"، 1991 ، ص.4064

[19] محمد الحسن الحمصي، تفسير وبيان القرآن الكريم، مع أسباب النزول للسيوطي، مع فهارس كاملة للمواضيع والألفاظ، طبع دار الرشيد، دون ذكر سنة الطبع، صفحة 210

[20] لفظة "الحمأ"، الطين إذا اسود وتغير لونه، "المسنون": الذي طالت مدة مكثه حتى تغيرت رائحته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَانظُرِ إِلَىَ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ (البقرة/259) أي لم يتغير طعمه من طول المدة، الأستاذ الشيخ سعيد محمد بن ابراهيم كعباش، نفحات الرحمن في رياض القرآن، نفس المصدر السابق، الجزء السابع، ص. 286.

[21] لذلك كانت المقولة التالية:﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(23)﴾ (الأعراف) أكبر بوابة للعفو الإلهي بالنسبة إلى آدم وزوجه، وهو ما سبق أن توسعنا فيه ضمن كتاب "المنهج النقدي في القرآن العظيم"، (وهو من الكتب التي تنتظر أن ترى النور) وقد اصطلحت عليه: ب ."الاصطفاء النموذجي وما يقابله من لعن نموذجي في القرآن الكريم". وقد استفسر البعض لماذا لم يعط الله عز وجل الفرصة للشيطان للتوبة كما أعطاها لآدم؟ إن ذلك يعود إلى شيئين أساسيين، الشيء الأول: إن الشيطان كان إصراره مبنيا على علم ومعرفة، إن إبليس قد خضع لعبادة الخالق ربما آلاف السنين، والشيء الثاني هو الإصرار في الغي والضلال والتحدي للخالق، إن إبليس قد دخل في محاجة كلامية غريبة مع الله عز وجل حين قال: ﴿ءَآسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا؟﴾، وفي ذلك يقول الحق جل جلاله في سورة الإسراء:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا ءَادَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ ءَآسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا(61) قَالَ أَرَآيْتَكَ هَذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنَ اَخَّرْتَنِيَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً(62)﴾ إن الحوار الذي ساقه المولى عز وجل مع إبليس يوضح عمق الكبر والحسد الذي ملأ قلبه. وقد فرق العلماء بين الخطأ الذي وقع فيه أبونا آدم وإبليس، إن مشكلة إبليس تتعلق بمرض من أمراض القلوب، وهو الكبر وما يتولد عنه من حسد، بخلاف خطأ أبينا آدم يتعلق بنزوة وشهوة عابرة أصابته، فهي قابلة للاستدراك والمراجعة.

[22]– موضوع طلب الملك يتعلق بقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ(23) فَقَالَ الْمَلأُ الذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلآئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَآئِنَا الأَوَّلِينَ(24)﴾.

[23] وذلك ضمن النّشاط الطّلابيّ، بجامعة بومرداس، إثر دعوة تلقّاها الدكتور "طارق سويدان" من قبل شركة الإبداع للاستثمار البشري بالجزائر العاصمة، وذلك في آخر السنة الدراسية الجامعية، شهر حزيران "جوان"، 2007 قاعة المحاضرات، جامعة بومرداس.

[24] إنّ تاريخ نبي الله يعقوب وزوجاته وأبنائه وما يتعلق من معلومات تاريخ بني إسرائيل، مستقاة من الأستاذ المؤرخ الدكتور فتحي زغروت في كتابه النوازل الكبرى في تاريخ الفكر الإسلامي، دار الأندلس الجديدة، الطبعة الأولى 2009 مصر، القاهرة، ص162 وما بعدها، حيث استقى الدكتور فتحي تلك المعلومات من المصادر الإسرائيلية، كالتوراة وغيرها.

[25] (التوبة/47)، والآية بكاملها توضح المعنى العميق لظاهرة النفاق في المجتمع الجديد، حيث يقول الله عز وجل: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. وهو فعلا ما وقع لجيش المسلمين، وهم في طريقهم إلى "أحد" حينما سحب زعيم المنافقين "عبد الله بن أبي بنسلول" ثلث الجيش،وهو ما وقع أيضا في غزوة بني المصطلق، وهو ما يتعلق بموضوع: الأقليّات ومسألة الاختراق لمجتمع الرسول ﷺ بالمدينة المنورة.

[26] وهو ما وضحناه بإسهاب ضمن الكتاب الذي ينتظر الطباعة بعنوان: "المنهج النقدي في كتاب الله عز وجل"، ويمكن أن نعتبر المنهج النقدي في كتاب الله بمثابة الأرضية الصلبة التي تقوم عليها عملية التقييم لهذه الأمة، بدون دراسة تقييم ودراسة أخطاء هذه الأمة عبر المنهج النقدي في كتاب الله عز وجل، لن تستطيع أن تتقدم خطوة في ظل الصراع الطائفي والمذهبي الموروث من يوم صفين إلى يومنا هذا.

[27] ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ اَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(17) وَلاَ يَسْتَثْنُونَ(18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ(19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(20) فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ(21) أَنُ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ(22) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ(23) أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ(24) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ(25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَآلُّونَ(26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ(28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ(30) قَالُوا يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ(31) عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ(32)﴾ (سورة القلم) .

[28] الحديث أخرجه ابن ماجة بسنده عن أبي خلف الأعمى، قال: سمعت أنس بن مالك، يقول: سمعت رسول الله ﷺ وآله وسلّم، يقول: "إنّ أمّتي لا تجتمع على الضلالة، فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم". وفي سنن الترمذي عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ وآله وسلّم، قال: «إنّ الله لا يجمع أمّتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة ومن شذَّ، شذَّ إلى النار». قال أبو عيسي (الترمذي): هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي سنن أبي داود عن أبي مالك يعني الأشعري قال: قال رسول ﷺ وآله وسلّم: «إنّ الله أجاركم من ثلاث خلال: أن لا يدعو عليكم نبيّكم فتهلكوا جميعاً، وأن لا يظهر أهل الباطل علي أهل الحقّ، وأن لا تجتمعوا علي ضلالة» وفي مسند أحمد بن حنبل: عن أبي ذر، عن النبي ﷺوآله وسلّم، أنّه قال: «اثنان خير من واحد، وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من ثلاثة، فعليكم بالجماعة، فإنّ الله عزّ وجلّ لن يجمع أمتي إلّا علي هدي» وجميع هذه الأحاديث لم تسلم من الطعن فيها، وترتقي بمجموعها إلى الحسن، كما قال العلماء فهو يحتج به عند علماء الأصول بالإجماع، ويأخذ الطابع السياسي عند أهل السنة والجماعة، وقد أطنب العلماء فيه، انظر على سبيل المثال القناة الفضائية للشيعة "شبكه هاى اجتماعى" مقال حول حديث «لا تجتمع أمّتي على ضلالة» ودراسته سنداً ودلالةً، تاريخ النشر:

https://hawzah.net/ar/Default 2009/13/6

[29] ذكر ابن عقبة أن الرسول ﷺوقف يوم بدر على القتلى، فالتمس أبا جهل فلم يجده حتى عرف ذلك في وجهه، فقال الرسول ﷺ "اللهم لا يعجزك فرعون هذه الأمة". الدكتور محمد متولي الشعراوي، غزوات الرسول ﷺ المكتبة التوفيقية، أمام مسجد الحسين، القاهرة، بدون ذكر سنة الطبع ص 48

[30] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حمٓ(1) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءايَاتُهُ قُرْءَانًاعَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلِ إِنَّنَا عَامِلُونَ(5) قُلِ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ(6) الذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالاٰخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(7)﴾ وهي آيات قرءانية موجهة مباشرة إلى قريش، تثير الانتباه وتحيي الضمير وتقشعر منها الأبدان، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الاٰرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَالِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ(9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِلسَّآئِلِينَ(10) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلاَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا اَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ(11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ اَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَالِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(12)﴾.

[31] من المعلوم أن عرب قريش تدرك جيدا مصير الأمم السابقة، كلٌّ من قوم لوط، وثمود، وما نزل عليها من العقاب، وهي قرى تقع في شمال الجزيرة، أما قرى عاد فهي تقع في الجنوب، وقد اندثرت كلها بفعل الريح العقيم، حين أرسلها الله عليهم، وهم يمرون عليها ضمن رحلة الشتاء والصيف بهدف التجارة، وكان عتبة يدرك جيدا ذلك المصير الذي ينتظر قريشا جراء الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ، فلم يستطع تحمّل الحقيقة المرّة، فناشده بالرّحم أن يكُفّ عن القراءة.

[32] كلمة "صبأ" تقولها العرب لمن بدَّل دينه، ودخل في الإسلام في تلك الفترة.

[33] محمد علي الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، وهذه الرواية نقلا عن الإمام البغوي في تفسيره، الطبعة السابعة، سنة 1981 دار القرءان الكريم بيروت، 13/ 254 وما بعدها.

[34] ابن هشام، السيرة النبوية، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها كل من مصطفى السقا، إبراهيم الأنباري، عبد الحفيظ شلبي، دار التراث العربي، بيروت لبنان، دون ذكر سنة الطبع، 01 / 293 – 294

[35] يقصد بذلك أبا جهل، والحنظليّة هي أمّه، والتي بها يكنّى أحياناً، ابن هشام، السّيرة النّبويّة، نفس المصدر السابق، 02/ 273.

[36] كناية عن الجُبن والخوف.

[37] الأستاذ إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، تقديم د. عمر سليمان الأشقر، راجعه د. همام سعيد، دار النفائس عمّان، الطبعة الثالثة 1998 صفحة 232.

[38] وجاء من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم بدر، قال: "فلما دنا القوم منا وصافيناهم إذا رجل منهم على جمل أحمر، يسير في القوم فقال رسول الله ﷺ إن يكن في القوم أحد يأمر بخير فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر، قال (علي): هو عتبة بن أبي ربيعة، وهو ينهى عن القتال، ويقول لهم: يا قوم إني أرى قوما مستميتين لا تصلون إليهم، وفيكم خير، يا قوم، اعصبوها اليوم برأسي وقولوا جبن عتبة بن أبي ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم، فسمع ذلك أبو جهل فقال: أنت تقول هذا؟ والله لو غيرك يقول لأغضضته، قد ملأت رئتُك جوفَك رُعبًا، فقال عتبة: إياي تعني يا مصفر إسته؟ ستعلم اليوم أينا الجبان". الأستاذ إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية نفس المصدر صفحة 232.

فهرسة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

01- إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، تقديم د. عمر سليمان الأشقر، راجعه د. همام سعيد، ط.3، عمّان، دار النفائس، 1998

02- ابن هشام، السيرة النبوية، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها كل من مصطفى السقا، إبراهيم الأنباري، عبد الحفيظ شلبي، ج.1، دار التراث العربي، بيروت، [د. ت.]

03- أبو زكريا يحي بن شرف النووي، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تعليقات العلامة محمد بن صالح العثيمين، القاهرة، مكتبة الصفا، ميدان الأزهر، 2004

04- أحمد وهبان، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر، دراسة في الأقليات والجماعات العرقية، أليكس لتكنولوجيا المعلومات، الإسكندرية، [د. ن.]، 2007

05- جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع، غرداية، المطبعة العربية [د. ت.]

06- الربيع بن حبيب الفراهيدي، ط.2، سلطنة عمان، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 2015.

07- سعيد محمد بن ابراهيم كعباش، نفحات الرحمن في رياض القرآن، ج.17، غرداية، المطبعة العربية- جمعية النهضة، 2015

08- صلاح الدين جبار، المختصر في تارخ النظم القانونية، ط.2، [د. م.]، دار مداني، 2007.

09- طه جابر العلواني، أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، سلسلة دراسات قرآنية رقم1، مكتبة الشروق الدولية، 2006

10- عبد الرحمن صالح بابكر، "سورة الفاتحة وعلاقتها بمشكلة الصراع الطائفي والمذهبي في العالم الإسلامي في الظرف الراهن"، [د. م.]، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2017.

11- عبد الرحمن صالح بابكر، إشكالية استعجال النصر في الحركات الإسلامية المعاصرة، وانعكاسه على مهددات السلم المدني وإثارته للفتن الداخلية، ومنهجية كلٍّ من القرآن والسنة والسيرة النبوية في التصدي لها وعلاجها، "دراسة حالة المجتمع الجزائري"، الجزائر، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2017

12- علي الوردي، "وعاظ السلاطين"، ط.2، بيروت، دار كوفان للنشر والتوزيع، 1995

13- فتحي زغروت، النوازل الكبرى في تاريخ الفكر الإسلامي، القاهرة، دار الأندلس الجديدة، 2009

14- قطاع الثقافة "أخبار اليوم"(أشرف على الطباعة)، تفسير الشعراوي، مج.7، القاهرة، ط. دار التقوى، 1991.

15- محمد الحسن الحمصي، تفسير وبيان القرآن الكريم مع أسباب النزول للسيوطي مع فهارس كاملة للمواضيع والألفاظ، دار الرشيد، [د. ت.].

16- محمد علي الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، مج.3، ط.7، بيروت، دار القرآن الكريم، 1981

17- محمد متولي الشعراوي، غزوات الرسول ﷺ، القاهرة، المكتبة التوفيقية، [د. ت.]

18- أحمد إبراهيم أبو شوك، "علم التاريخ إشكالات المنهجية ومشروعات الأسلمة"، مجلة إسلامية المعرفة، بحوث ودراسات علم التاريخ، ع. 24، اغسطس 2000

19- عبد الدائم الكحيل، شبكة النبأ المعلوماتية، 25 مارس 2008، www.kahell7.com

20- القناة الفضائية للشيعة "شبكه هاى اجتماعى" مقال حول حديث «لا تجتمع أمّتي على ضلالة» ودراسته سنداً ودلالةً، https://hawzah.net/ar/Default 2009/13/6